محمود شلبي

حياة بلال

دار الجيل
بيروت

حياة بلال

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الاهداء

اللهم... منك... وإليك

محمود شلبي

بسم الله الرحمٰن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك....

وأصلّي وأسلّم على البشير النذير... وبعد...

هذه حلقة في سلسلة... حياة الأنبياء... وحياة الصحابة... اسمها «حياة بِلال»!!!مَنَّ الله فيه بما لا يُحصى من العطايا والهدايا...

فجاء سهلًا ميسورا!!!

يترقرق الى الأفئدة رُوحًا ونُورا!!!

ولقد تَذوّقت أثناء تأليفه شيئًا من أنوار تلك الأرواح العُلَى... أرواح ساداتنا أصحاب رسول الله ﷺ!!!

شيئًا لا يُوصَف... ولكن يعلمه الله!!! بلال؟!!

ذلكم العظيم... الأسْوَد!!!

الرجل الذي لم يسبقه الى الاسلام إلا أبو بكر!!!

بلال... بل سيدي بلال... بل سيدنا بلال!!!

اللهم إني أسألك من مَوْج بلال... إذ يُعَذّبونه... وهو يهدر إليك... أحَدٌ... أحَدٌ... أحَدٌ!!!

أن تتقبل منّي هذا الكتاب بقبول حَسَن...

وأن تجعل أفئدة من الناس تهوى إليه...

وأن تجعله خالصا لوجهك الكريم.

محمود شلبي

الخطوط العريضة . . .

من حياة . . .

بلال . . ؟!

قال صاحب «أُسْد الغابة في معرفة الصحابة»:

بِلال بن رَبَاح

بِلَالُ بن رَبَاح...
يكنى: أبا عبد الكريم...
وقيل: أبا عبد الله...
وقيل: أبا عمرو...
وأمه حمامة... من مُوَلَّدى مكة لبني جُمَح...
وهو مولى أبي بكر الصديق...
اشتراه بخمس أواقيّ...
وقيل: بسبع أواقيّ...
وقيل: بتسع أواقي...
وأعتقه لله عزّ وجلّ...

وكان مؤذنا لرسول الله ﷺ

وكان مؤذنًا لرسول الله ﷺ... وخازنًا.

أحَدٌ... أحَد

شهد بدْرًا...
والمشاهد كلها...
وكان من السابقين إلى الإسلام...
وممن يعذب في الله عز وجل... فيصبر على العذاب!!!

المجرم الأكبر أبو جهل؟!

وكان أبو جهل يَبْطَحُه على وجهه في الشمس!!!
ويضع الرحى عليه حتى تصْهَره الشمس!!!
ويقول: اكفُر برب محمد...
فيقول: أحَد... أحد!!!!
فاجتاز به ورقة بن نوفل... وهو يعذب ويقول: أحد... أحَد...
فقال: يا بلال... احَدٌ أحد... والله لئن مت على هذا لأتخذن قبرك حنانا[1]!!!
قيل: كان مولى لبني جُمَح... وكان أمية بن خلف يعذبه... ويتابع عليه العذاب...
فقدر الله سبحانه وتعالى أن بلالا قتله ببدر!!!

لو كان عندنا شيء... لاشترينا بلالا؟!

قال سعيد بن المسيب... وذكر بلالا: كان شحيحًا على دينه...

---

(١) أي لأجعلن قبرك موضع حنان... أي مظنة من رحمة الله تعالى... فأتمسح به تبركًا!!!

وكان يعذب... فإذا أراد المشركون أن يقاربهم[1] قال:

الله... الله!!!

قال: فلقي النبي ﷺ أبا بكر... رضي الله عنه... فقال: «لو كان عندنا شيء لاشترينا بلالا»...

قال: فلقي أبو بكر العباس بن عبد المطلب فقال: اشتر لي بلالا...

فانطلق العباس فقال لسيدته: هل لك أن تبيعيني عبدك هذا قبل أن يفوتك خيره؟...

قالت: وما تصنع به؟... إنه خبيث... وإنه وإنه!!!

ثم لقيها... فقال لها مثل مقالته... فاشتراه منها...

وبعث به إلى أبي بكر... رضي الله عنه!!!

وقيل: إن أبا بكر اشتراه وهو مدفون بالحجارة... يعذب تحتها[2]!!!

أوّل مَن أذّن؟!

وكان يؤذن لرسول الله ﷺ...

في حياته.. سَفَرًا وحَضَرًا...

وهو أول من أذّن له في الإسلام!!

عن الأسود بن بلال قال: «آخر الأذان، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله».

---

(١) أي: يستميلوه إليهم.

(٢) اللهم ارفع درجات عبدك بلال وأبلغه تحياتنا وصلواتنا!

ذرني أذهب إلى الله عزّ وجلّ؟!

فلما توفي رسول الله ﷺ أراد أن يخرج إلى الشام...

فقال له أبو بكر: بل تكون عندي...

فقال: إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني... وإن كنت أعتقتني لله عزّ وجلّ فذرني أذهب إلى الله عزّ وجلّ...

فقال: اذهب...

فذهب إلى الشام...

فكان به حتى مات...

وقيل: إنه أذَّن لأبي بكر... رضي الله عنه... بعد النبي ﷺ.

أنشدك الله... يا بلال؟!

قالوا:

لما توفي رسول الله ﷺ جاء بلال إلى أبي بكر... رضي الله عنه...

فقال:

يا خليفة رسول الله ﷺ...

إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«أفضل أعمال المؤمن الجهاد في سبيل الله»...

وقد أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت...

فقال أبو بكر: أنشدك الله يا بلال...

وحُرمتي وحقّي... فقد كبرت واقترب أجلي...

فأقام بلال مع أبي بكر حتى توفي أبو بكر!!!

فخرج إلى الشام مجاهدًا ؟!

فلما توفي جاء بلال إلى عمر ... رضي الله عنه ... فقال له كما قال لأبي بكر ... فرد عليه كما رد أبو بكر ... فأبى!!!

وقيل إنه لما قال له عمر، ليقيم عنده، فأبى عليه: ما يمنعك أن تؤذن؟ ...

فقال: إني أذَّنت لرسول الله ﷺ حتى قُبض ...

ثم أذَّنت لأبي بكر حتى قُبض ... لأنه كان وليّ نعمتي ...

وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« يا بلال ... ليس عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله » ...

فخرج إلى الشام مجاهدًا ...

أذَّن لعُمَر مرة واحدة؟!

وإنه أذَّن لعمر بن الخطاب لما دخل الشام مرة واحدة ...

فلم يُرَ باكيًا أكثر من ذلك اليوم!!!

روى عنه الأكابر؟!

روى عنه أبو بكر ...

وعمر ...

وعليّ ...

وابن مسعود ... وعبد الله بن عمر ... وكعب بن عُجْرة ... وأسامة بن زيد ... وجابر ... وأبو سعيد الخدري ... والبراء بن عازب ...

وروى عنه جماعة من كبار التابعين بالمدينة والشام!!!

كُنَّا مملوكَيْن فأعتقنا الله؟!

وروى أبو الدرداء أن عمر بن الخطاب لما دخل مِن فتح بيت المقدس إلى الجابية[1]...

سأله بلال أن يقرّه بالشام... ففعل ذلك...

قال: وأخي أبو رويحة الذي آخى رسول الله ﷺ بيني وبينه؟...

قال: وأخوك...

فنزلا «دَارَيّا» في خَوْلان[2]...

فقال لهم:

قد أتيناكم خاطبَيْنْ... وقد كنا كافرَيْن... فهدانا الله...

وكُنَّا مملوكَيْن فأعتقنا الله...

وكنا فقيرَيْن فأغنانا الله...

فإن تُزَوِّجونا فالحمد لله...

وإن تردونا فلا حول ولا قوة إلا بالله...

فزوّجوهما!!!

ما هذه الجفوة يا بلال... ما آن لك أن تزورنا؟!

ثم إن بلالا رأى النبي ﷺ في منامه وهو يقول:

---

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق.

(٢) داريَّا: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة... وخوْلان: قبيلة عربية نزلت بمصر والشام فحملت أنسابهم.

« ما هذه الجفوة يا بلال؟...
« ما آن لك أن تزورنا» ؟...
فانتبه حزينًا...
فركب إلى المدينة فأتى قبر النبي ﷺ...
وجعل يبكي عنده... ويتمرغ عليه!!!
فأقبل الحسن والحسين...
فجعل يقبّلها... ويضمها!!!

ارتَجّت المدينة؟!

فقالا له: نشتهي أن تؤذِّن في السَّحَر...
فعلا سطح المسجد...
فلما قال: « الله أكبر، الله أكبر » ارتجت المدينة!...
فلما قال: « أشهد أن لا إله إلا الله »...
زادت رَجّتُها!!!
فلما قال: « أشهد أن محمدا رسول الله »...
خرج النساء من خدورهن...
« فما رئي يوم أكثر باكيًا وباكية من ذلك اليوم!!!

ما دخلْتُ الجنَّة؟!

اخبرنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال:
« أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالا فقال:
« يا بلال... بم سبقتني إلى الجنة؟..

« ما دخلتُ الجنة قطّ إلا سمعت خشخشتك[1] أمامي » .

وأعتق سيِّدَنا ؟!

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:

« أبو بكر سيدُنا ...

« وأعتق سيدَنا !!!

يعني: بلالا

أوّلَ مَن أظهر الإسلام ؟!

وقال مجاهد:

أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة:

رسول الله ... وأبو بكر ... وخباب ... وصهيب ... وعمار ... وبلال ... وسميّة أم عمّار ...

فأما بلال فهانت عليه نفسه في الله ... عزّ وجلّ ...

وهان على قومه ... فأخذوه فكتفوه!!!

ثم جعلوا في عنقه حبلا من ليف!!!

فدفعوه إلى صبيانهم!!!

فجعلوا يلعبون به بين أخشبي مكة!!

فإذا ملوا تركوه!!!

(١) الخشخشة: حركة لها صوت.

أذَّنْتُ في غداة باردة؟!

عن أبي بكر الصدّيق...
عن بلال... قال:
« أذَّنْتُ في غداة باردة...
« فخرج النبي ﷺ فلم ير في المسجد أحدًا... فقال:
« أين الناس؟ »...
فقلت: حبسهم القَرّ...
فقال: « اللهم أذهب عنهم البرد »...
قال: فلقد رأيتهم يتروحون[1] في الصلاة».

مات سنة عشرين؟!

قال محمد بن سعد كاتب الواقدي:
توفي بلال بدمشق...
ودفن بباب الصغير سنة عشرين...
وهو ابن بضع وستين سنة...
وقيل: مات سنة سبع أو ثماني عشرة...
وقال علي بن عبد الرحمن: مات بلال بحلب... ودفن على باب الأربعين...
وكان آدم شديد الأدْمة...
نحيفًا طوالا...

(١) أي احتاجوا إلى التروح بالمروحة من الحرّ.

أَجْنَى[1] ... خفيف العارضين ...

قال أبو عمر:

وله أخ اسمه خالد ...

وأخت اسمها: غُفَيرة ...

ولم يعقب بلال.

---

(١) الأجنى: من يميل أعلى ظهره على صدره.

مناقب . . .
بِلال . . .
ابن رَبَاح . . .؟!

أحد النقباء... الأرْبعة عَشَر؟!

« قال عليٌّ بنُ أبي طالبٍ...

« قال النبيُّ ﷺ:

« إنَّ كُلَّ نبيٍّ أُعْطِيَ سَبْعَةَ نُجَبَاءَ... أوْ نُقَبَاءَ...

« وأُعْطِيتُ أنَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ...

« قُلْنا: مَنْ هُمْ؟...

« قال: أنَا... وابْنَايَ... وجَعْفَرُ... وحَمْزَةُ... وأبُو بَكْر... وعُمَرُ... ومُصْعَبُ بن عُمَيْر... وبَلَالٌ... وسَلْمَانُ... ومِقْدَادُ... وأبُو ذَرٍّ... وعَمَّارٌ... وعَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ».

[أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حَسَنٌ غريبٌ من هذا الوجه. وقد رُوي هذا الحديث عن عليٍّ موقوفا]

★ ★ ★

اقول: هؤلاء الأربعة عشر... هؤلاء النجباء... هؤلاء النقباء... اي العظماء... كان بلال أحَدهم!!!

تحرير بلال ... مَنْقَبة ... من مناقب[1] أبي بكر؟!

« عن علِيٍّ قالَ:

« قالَ رسولُ الله ﷺ:

« رَحِمَ اللهُ أبا بَكْرٍ ... زَوَّجَني ابْنَتَهُ ... وَحَمَلَني الى دارِ الْهِجرَةِ ... وأعْتَقَ بِلالًا مِن مالِهِ ...

« رَحِمَ اللهُ عُمَرَ ... يقولُ الْحَقَّ وَإن كانَ مُرًّا ... تَرَكَهُ الحَقُّ وما لَهُ صَدِيقٌ ...

« رَحِمَ اللهُ عُثمانَ ... تَسْتَحْيِيهِ الملائِكَةُ ...

« رَحِمَ اللهُ عَلِيًّا ... اللهُمَّ أَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ .

[أخرجه الترمذي]

★ ★ ★

اقول: ونلتقط من الحديث قوله « وأعتَقَ بلالًا مِن ماله » !!!

فما معنى هذا؟! ... معناه أنّ من مقومات عظمة أبي بكر ... أنه اشترى بلالا من ماله الخاص ... ثم أعتقه لوجه الله ...

فلماذا كان هذا العمل عملا عظيما؟!

لأنه أنْقَذَ نَفْسا من التعذيب ... والتحقير ... والإهانة ... والاذلال ...

وكان يمكن أن يقف أبو بكر عند شراء بلال ... فينقذه من التعذيب ... ويستبقيه عبدًا مملوكا كما كان ...

ولكن أبا بكر العظيم تجاوز ذلك كله ... وأعتق بلالا ...

فأصبح العبد المملوك ... المعذَّب ... المضطَّهد ... الذي يحترق

---

(١) المناقب: واحدتها منقبة... وهي عبارة عن طريق الفضائل وسبيل الشرف والمكارم.

جسده في رمضاء مكة...

أصبح حُـرًّا... كـريما... معـافى... ليـأخـذ مكـانتـه في أسبـق السابقين... في عظماء الأكرمين!!!

فما أكرم الصِّدِّيق... إنه لذو حظٍّ عظيم!!!

لا أريد المدينة بدون رسول الله... ﷺ؟!

« عن قَيْسٍ...

« أنَّ بِلَالًا قال لأبي بَكْر:

« إن كُنْتَ اشْتَرَيْتَنِي لِنَفْسِكَ فأَمْسِكْنِي...

« وإنْ كُنتَ إنَّمَا اشْتَرَيْتَنِي للهِ فَدَعْنِي وعَمَلَ اللهِ » .

[أخرجه البخاري]

كلامه هذا يدل على ان قصده التجرد إلى الله... والاشتغال بعمله... وهو منقبة غير قليلة...

« إن كنت اشتريتني » إلى آخره... هذا القول من بلال كان في خلافة أبي بكر...

وصرح بذلك في رواية أحمد... بلفظ (قال بلال لأبي بكر حين توفي رسول الله ﷺ)...

« فدعني » اي فاتركني... وفي رواية ابي اسامة (فذرني اعمل لله)...

وذكر الكرماني:

« اراد بلال ان يهاجر من المدينة فمنعه ابو بكر... اراده ان يؤذِّن في مسجد رسول الله ﷺ... فقال « اني لا أريد المدينة بدون رسول الله ﷺ... ولا أتحمل مقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاليا عنه » !!!

وقال ابن سعد في الطبقات: ان بلالا قال: «رأيت أفضل عمل المؤمن الجهاد... فأردت أن أرابط في سبيل الله»...

وان ابا بكر قال لبلال: انشدك الله... وحقّي... فأقام معه بلال حتى توفي... فلما مات أذِن له عمر... فتوجه الى الشام مجاهدا... وتوفي بها في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة... وقيل: مات سنة عشرين!!!

★ ★ ★

اقول: إنه الحبّ!!!

وأيّ حبّ؟!!

لا يُطيق بلال أن يبقى بالمدينة المنورة بعد وفاة النبي ﷺ!!!

كان مع النبي ﷺ... في كل صلاة... في كل مشهد...

والآن قد انتقل ﷺ الى الرفيق الأعلى...

فكيف يبقى بلال بالمدينة وقد ذهب الحبيب ﷺ الى ربه؟!!

عمر يشهد؟!

« أخبرنا جابِرُ بنُ عبد اللهِ رضي الله عنهما قال:

« كانَ عُمَرُ يقولُ:

« أبو بَكْر سَيِّدُنا

« وأعْتَقَ سَيِّدَنا

« يَعْنِي بِلَالًا »

[أخرجه البخاري]

مطابقتـه لترجمة باب مناقب بلال بن رَبَاحٍ مَوْلى أبي بكرٍ رضي الله

عنها... من حيث أن عمر اطلق على بلال بالسيادة... وهي منقبة عظيمة...

«وأعتق سيِّدنا» السيد الأول حقيقة... والسيد الثاني مجاز لأنه قاله تواضعا...

ويقال معناه انه من سادة هذه الأمة... وليس أنه افضل من عمر...

وقيل ان السيادة لا تثبت إلا فضيلة...

★ ★ ★

اقول: قالها عمر شمسا مشرقة «وأعْتَقَ سيِّدَنا» فتشعشعت وما زالت تتشعشع الى ما شاء الله... شاهدة بفضل بلال!!!

ويزيدها جمالا الى جمال... أن الناطق بها هو عُمَر... وما أدراك ما عُمَر؟!!

لؤلؤة في تاج بلال بن رَباح؟!

«وقال النبيُّ ﷺ: «سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ في الْجَنَّةِ».

[أخرجه البخاري]

هذا التعليق قطعة من حديث مضى في صلاة الليل... والدَفّ: السير اللّيِّن...

ويقال الخفق... وإنما قال بين يديّ ليبين انه يفعل ذلك.

★ ★ ★

وأقول: ما هو هذا الحديث الذي يشير اليه الشارح؟!

اليكموه!!!

مَلِكٌ...

مِن مُلُوك...

الآخرة..؟!

كُلّ أصحاب رسول الله ... ﷺ عظماء ...

وأعظم هؤلاء العظماء ...

السابقون السابقون ...

وأعظم هؤلاء السابقين ... أوّل مَن آمن حيث لا شيء سوى التعذيب والاضطهاد ...

وكان بلال من هؤلاء الأعلام الكرام!!!

« عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ...

« أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لِبلَال ... عِندَ صلَاة الفَجْر:

« يَا بِلَالُ ... حَدِّثْني بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الإسلامِ ... فإنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ ...

« قال: ماعَمِلْتُ عَمَلًا أرْجى عِندِي أنِّي لَمْ أتَطَهَّرْ طُهُورًا ... في ساعة ليْلٍ أو نهارٍ ... إلا صَلَّيْتُ بذلِك الطَّهورِ ما كُتِبَ لي أنْ أُصَلِّيَ.

[أخرجه البخاري]

« قال لبلال » هو ابن رَبَاح ... المؤذن ...

« في صلاة الفجر » اشارة الى ان ذلك وقع في المنام لأن عادته ﷺ انه كان يقص ما رآه ويعبر ما رآه غيره من أصحابه بعد صلاة الفجر ...

« بأرجى عمل عملته في الاسلام » وفي رواية مسلم « حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الاسلام منفعة » ..

« فإني سمعت دفّ نعليك بين يدي في الجنة » وفي رواية مسلم « فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي » وفي رواية الاسماعيلي « حفيف نعليك »... وفي رواية الحاكم على شرط الشيخين « يا بلال بم سبقتني الى الجنة ... دخلت البارحة فسمعت خشخشتك أمامي ... وعند أحمد والترمذي » فإني سمعت خشخشة نعليك »..

والخشخشة: الحركة التي لها صوت كصوت السلاح ...

وفي رواية ابن السكن «دويّ نعليك»...

وأما الدّفّ... قال إبن سيده: الدفيف: سير لين... دف يدف دفيفا... ودفّ الماشي على وجه الأرض اذا جدّ... ودفّ الطائر: ضرب جنبيه بجناحيه...

وزعم ابو موسى المديني في المغيث: ان حديث بلال هذا «سمعت دَفّ نعليك» أي حفيفها وما يحس من صوتها عند وطئها...

«أنّي» اي ما عملت عملا أرجى من أنّي...

«لم أتطهر طُهُورًا» اي لم أتوضأ وضوءا... وهو يتناول الغسل أيضًا... وفي رواية مسلم «طهورا تاما» ويحترز بالتام عن الوضوء اللغوي وهو غسل اليدين لأنه قد يفعل ذلك لطرد النوم...

«ما كُتب لي» وفي رواية «ماكتب الله لي» اي ما قدّر... وهو أعم من الفرض والنافلة...

ما يستفاد منه؟!

فيه أن الصلاة افضل الأعمال بعد الإيمان لقول بلال أنه ما عمل عملا أرجى منه...

وفيه دليل على أن الله تعالى يعظم المجازاة على ما يسرّ به العبد بينه وبين ربه... مما لايطلع عليه أحد... وقد استحب ذلك العلماء ليدخرها وليبعدها عن الرياء...

وفيه فضيلة الوضوء... وفضيلة الصلاة عقيبه لئلا يبقى الوضوء خاليًا عن مقصوده وفيه فضيلة بلال رضي الله تعالى عنه...

فلذلك بوَّب عليه مسلم حيث قال: باب فضائل بلال بن رباح... مولى ابي بكر رضي الله تعالى عنهما... ثم روى الحديث المذكور...

وفيه سؤال الصالحين عن عمل تلميذه ليحضه عليه ويرغبه فيه ان

كان حَسَنا وإلا فينهاه...

وفيه أنَّ الجنَّة مخلوقة... موجودة الآن...

وحديث بريدة الذي رواه الترمذي... ذكره الترمذي في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه...

... قال «حدثني ابو بريدة قال:

«أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالا...

«فقال: يا بلال... بم سبقتني الى الجنة؟...

«ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي...

«قال: دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي...

«فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب... فقلت: لمن هذا القصر؟...

«قالوا: لرجل من العرب...

«فقلت: أنا عربي... لمن هذا القصر؟...

«قالوا: لرجل من قريش...

«فقلت: أنا قرشي... لمن هذا القصر؟...

«قالوا: لرجل من أمة محمد ﷺ...

«فقلت: أنا محمد... لمن هذا القصر؟...

«قالوا: لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه...

«فقال بلال: يا رسول الله... ما أذَّنت قطّ إلا صليت ركعتين... وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها... ورأيت ان لله عليّ ركعتين...

«فقال رسول الله ﷺ: بهما».

الاسئلة والأجوبة ؟!

منها ما قاله الكرماني: هذا السماع لا بد أن يكون في النوم إذ لا يدخل احد الجنة إلا بعد الموت...

(قلت) يحتمل كونه في حال اليقظة... وقد صرح في اول كتاب الصلاة انه دخل فيها ليلة المعراج...

ومنها ما قيل: كيف يسبق بلال النبيّ ﷺ في دخول الجنة... والجنة محرمة على من يدخل فيها قبل دخوله ﷺ ؟!...

(قلت)[1] التحقيق فيه ان رؤية النبي ﷺ اياه في الجنة حق... لأن رؤيا الأنبياء حق...

وقال الترمذي: ويروى أن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحي...

وأما سبق بلال النبي ﷺ في الدخول في هذه الصورة... فليس هو من حيث الحقيقة... وإنما هو بطريق التمثيل... لأن عادته في اليقظة أنه كان يمشي أمامه... فلذلك تمثل له في المنام... ولا يلزم من ذلك السبق الحقيقي في الدخول...

ومنها ما قيل ان دخول بلال الجنة... وحصول هذه المنقبة له إنما كان بسبب تطهره عند كل حدث وصلاته عند كل وضوء بركعتين... كما صرح به في آخر حديث بريدة بقوله «بهما»... أي بالتطهر عند كل حدث والصلاة بركعتين عند كل وضوء...

وقد جاء «ان احدكم لا يدخل الجنة بعمله»...

(قلت) أصل الدخول برحمة الله تعالى... وزيادة الدرجات والتفاوت فيها بحسب الأعمال... وكذا يقال في قوله تعالى ﴿ادخلوا

---

(١) أي الشارح.

الجنة بما كنتم تعملون﴾[1].

★ ★ ★

اقول: ذلكم بلال... ذلكم ملِك من ملوك الآخرة!!!

(١) سورة النحل، الآية ٣٢.

لَئِنْ كُنْتَ...

أَغْضَبْتَهُمْ...

لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ...؟!

هـا هنـا بـرهـان عظيم... على عظمـة شخصيـة بلال... وإليـك الدليل...

« عَنْ عَائذِ بنِ عَمْرو...

« أنَّ أبا سُفيانَ أتَى عَلَى سَلْمَانَ وصُهَيْبٍ وبلَالٍ... في نَفَر... فقالُوا:

« واللهِ ما أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا...

« قال: فقالَ أبو بَكرٍ: أتقُولُونَ هَذا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وسَيِّدِهِمْ؟!...

« فأتَى النبيَّ ﷺ فأخْبَرَهُ...

« فقالَ: يا أبَا بَكْر لَعَلَّكَ أغْضَبْتَهُمْ... لَئِن كُنتَ أغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أغْضَبْتَ رَبَّكَ...

« فأتَاهُمْ أبُو بَكْرٍ فقالَ: يا إخْوتَاهُ أغْضَبْتُكُمْ؟!...

« قالوا: لَا... يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يا أَخِي » .

[أخرجه مسلم]

قالوا:

وهذا الاتيان لأبي سفيان كان وهو كافر في المدنة... بعد صلح الحديبية...

وفي هذا فضيلة ظاهرة لسلمان ورفقته هؤلاء...

وفيه مراعاة قلوب الضعفاء وأهل الدين وإكرامهم وملاطفتهم!!!

«يا اخوتاه أغضبتكم؟... قالوا: لا... يغفر الله لك يا أخي» أما قولهم يا أُخيّ... فضبطوه بضم الهمزة على التصغير... وهو تصغير تحبيب وترقيق وملاطفة... وفي بعض النسخ بفتحها...

قال القاضي: قد روي عن أبي بكر أنه نهى عن مثل هذه الصيغة... وقال: قل عافاك الله... رحمك الله... لا تزد... أي: لا تقل قبل الدعاء «لا» فتصير صورته صورة نفي الدعاء... قال بعضهم: قل لا... ويغفر لك الله.

★ ★ ★

اقول: تأمّل قول النبي ﷺ: «يا أبا بَكْر... لعلَّكَ أغضَبْتَهُمْ؟...

«لئِنْ كُنْتَ أغضبْتَهـمْ لقَدْ أغضبْتَ ربَّكَ!!!

تتذوق هنا جمال الرحمة التي تنساب انسيابا!!!

لعلك أغضبتَهم؟!

فيها رفع عظيم لشأن سَلْمان وصُهَيْب وبلال!!!

لئِن كنتَ أغضبتَهُمْ لقَدْ أغضبْتَ ربَّكَ!!!

فيها تحذير أن يكون قد فعل ذلك!!!

وفزع أبو بكر...

فذهب إلى الثلاثة وقال في اعتذار:

«يا إخوتاه... أغضبْتُكُمْ؟!

قالوا: لا...

«يَغْفِرُ اللهُ لكَ يا أُخَيّ»!!!

هنالك هدأ أبو بكر!!!

فما معنى هذا ؟!

معناه أن النبي ﷺ . . .يعلم قدْر هؤلاء المساكين عند الله . . .

يعلم أنَّ سَلْمان عند الله عظيم!!!

وأنَّ صُهَيْبًا عند الله عظيم!!!

وأنَّ بلالًا عند الله عظيم!!!

ثم ماذا ؟!. . . ثم كان أعظم الشرف الذي يشرف به كل واحد من هؤلاء الثلاثة . . . قوله ﷺ :

« لئِنْ كنتَ أغضبْتَهُمْ

« لَقَدْ أغْضَبْتَ رَبَّكَ!!!

أي إن كنت يا أبا بكر أغضبت بلالًا . . . لقد أغضبتَ ربَّكَ!!!

لماذا ؟!!

لأن بلالًا يُحِبّ في الله ويَكْرَه في الله . . .

فإذا كره أبا سفيان آنذاك فإنما كرهه لأنه كان عدُوًّا لله . . .

وما ينبغي أن يغيب هذا عن الصِّدِّيق وهُوَ ما هو!!!

وذهب بلال وصاحباه بهذا الشرف العظيم!!!

رضي الله عنهم!!!

متى . . .
أسْلَمَ . . .
بلال . . . ؟!

ما كان بلال قبل اسلامه شيئًا يُذْكَر!!!

وصدق الله:

﴿هَلْ أَتى عَلَى الإنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[1]؟!

كان بلال قبل اسلامه... نكرة لا يُلتفت إليه...

مجرد عبد أسود من عبيد تعجّ بهم مكة...

ويملك كل سيد من ساداتها... أو سيدة من سيداتها أعدادًا منهم... يسومونهم سوء العذاب... ويحقرونهم متى شاءوا... ويلعبون بهم متى شاءوا...

وكيف لا؟... إنهم سلعة من السلع المعروضة للبيع والشراء... شأنهم شأن البهائم والبضائع!!!

ولا يجد هؤلاء العبيد مَن يحررهم من قذارة الرّق... ومهانة الاسترقاق!!!

وكان بلال صفرًا من هذه الأصفار... وضائعًا من هؤلاء الضائعين!!!

مستغرَقًا في شاق الأعمال... مستهلكًا في حقير المشاغل...

أمّا الأمل فلا أمَل!!!

إذ ماذا يأمل العبد أن يكون؟!

هو مملوك... يعيش مملوكًا... ويموت مملوكًا!!!

مجرد سلعة... يفعل بها صاحبها ما شاء!!!

(١) سورة الانسان، الآية ١.

هذا كان حال العالَم كله...

وكان بلال شيئًا من هذه الأشياء التي لا حقّ لها في شيء!!!

وفجأة... سطع في هذه الظلمات نور عظيم...

إنَّ الله تعالى... بعث محمدًا ﷺ... نبيًا... ورسولًا!!!

فكان هذا طوق النجاة للأرقاء والمستضعفين...

وسمع بلال مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمَنَ...

وكان هذا هو الميلاد الحقيقي لبلال بن رَباح...

لقد أحس الآن أنه إنسان... له حقوق الإنسان...

وكان من قبل معدومًا... لا حقّ له في شيء!!!

والإنسان الطبيعي أي الحُرّ الذي ليس بعبد ولا مملوك... يربح مرة واحدة إذا أسلم... يربح انتقاله من الكفر إلى الإيمان... من الظلمات إلى النور...

أمّا الإنسان المسترقّ... الإنسان العبد الرقيق... فإنه يربح مرتين...

مرة... بانتقاله من الكفر إلى الإيمان... ومرة ثانية... بانتقاله من الرِّقّ إلى الحرية... من العبودية إلى الحرية!!!

وهذا هو السِّرّ في أن كثيرًا مِمَّن تبع الإسلام في البداية كانوا من المستضعفين والرقيق...

إنهم يسارعون إلى ما ينقذهم مما هم فيه من هوان!!!

آمَن بلال عندما سمع بالإسلام لأنه وجد فيه الحياة بكل مقومات الحياة...

وجد فيه رَبًّا يفزع إليه إذا عذَّبوه لإيمانه... فيتلوَّى ألَمًا من وقع السياط...

ويتشعشع سمُوًّا إلى ربه:

أحَدٌ... أحَدٌ... أحَد!!!

كانت تخرج منه فيها حلاوة الندى في نسيم الفجر الرطيب...
فتتصاعد إلى الله... فيرفع الله بها بلالًا درجات ودرجات!!!
فيزداد بلال حُبًّا لربّه...
وينادي وهو مبطوح على وجهه في رمضاء مكة الحارقة:
أحَدٌ!!!
أحَدٌ!!!
أحَد!!!
سيدي بلال...
لقد رُفِعَتْ موجاتُك المقدسة عند الله رفعًا عظيمًا...

يا صارخًا بالأحدية والتوحيد... في مجتمع يعبد اللّاتِ والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى!!!

اللهم إني أسألك من موج بلال إذ يستصرخك: أحد أحَد أحَد... أن ترفعه عندك رفعًا عظيمًا... وأن تبلغه تحياتي وصلواتي ودعواتي!!!

كل أصحاب رسول الله ﷺ عظماء...
وبلال أحد هؤلاء الأعلام!!!
ثم أقول: ماذا صنعوا به عندما أسلم؟!
جاء في سيرة ابن هشام:

ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة؟!

(قسوة قريش على من أسلم):

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسْلم، واتّبع رسولَ ﷺ من

أصحابه، فوثبتْ كلُّ قبيلةٍ على مَنْ فيها من المُسْلمين، فجعلوا يحْبِسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجُوع والعَطش، وبرَمْضاء مكة إذا اشتدّ الحرّ، مَن استضعفوا منهم، يَفْتنونهم عن دينِهِمْ، فمنهم من يُفْتَن من شدّة البلاء الذي يُصيبه، ومنهم من يَصْلُب لهم، ويَعْصمه الله منهم.

(ما كان يلقاه بلال بعد إسلامه، وما فعله أبو بكر في تخليصه):

وكان بلالٌ، مَوْلى أبي بكْر رضي الله عنهما، لبعض بني جُمَح، مولدا من مولديهم، وهو بلالُ بن رباح، وكان صادقَ الإسلام طاهرَ القلب، وكان أُميَّة بن خَلَف بن وَهْب بن حُذاقة بن جُمَح يُخرِجه إذا حميت الظَّهيرةُ، فيَطْرحه على ظهره في بَطْحاء مكة، ثم يأمر بالصّخرة العظيمة فتوضع على صَدْره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموتَ، أوْ تكفر بمحمد، وتعبد اللاتَ والعزى؛ فيقول وهو في ذلك البلاء: أحَدٌ أحَدٌ.

قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان وَرَقة بن نوفل يمرّ به وهو يعذّب بذلك، وهو يقول: أحَد أحد؛ فيقول: أحَدٌ أحَد والله يا بلال، ثم يُقبل على أُميَّة بن خَلف، ومن يَصْنع ذلك به من بني جُمَح، فيقول أحلفُ بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذَنَّه حنَانا[1]، حتى مرّ به أبو بَكْر الصدّيق رضي الله عنه يومًا، وهُم يَصْنعون ذلك به، وكانت دارُ أبي بكر في بني جُمَح، فقال لأمية بن خَلف: ألا تتّقي الله في هذا المِسْكين؟ حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته فأنْقِذْه مما ترى؛ فقال أبو بكر: أفعلُ، عندي غلام أسودُ أجْلدُ منه وأقْوى، على دينك، أُعْطيكه به؛ قال: قد قبلتُ فقال: هو لك. فأعطاه أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه غلامَه ذلك، وأخذه فأعتقه.

(من أعتقهم أبو بكر مع بلال):

ثم أعْتق معه على الإسلام قبلَ أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رقاب، بلالٌ

(١) أي لأجعلن قبره موضع حنان: أي عطف ورحمة، فأتمسح به متبركًا، كما يتمسح بقبور الصالحين والشهداء.

سابعُهم عامر بن فَهيرة، شَهِد بدرًا وأُحُدًا، وقُتِل يوم بئر مَعونة شهيدًا؛ وأمّ عُبيس وَزِنِّيرة، وأصيب بصرُها حين أعتقها، فقالت قُريشٌ: ما أذهب بصرَها إلا اللات والعزَّى؛ فقالت: كذَبُوا وبيت الله ما تضر اللات والعزَّى ما تَنفعان، فردّ اللهُ بصرَها.

وأعتق النَّهدية وبنتَها، وكانتا لامرأة من بني عَبْد الدار، فمرّ بهما وقد بعثتها سيدتها بطحين لها، وهي تقول: والله لا أعْتقكما أبدًا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلّ[1] يا أمّ فلان؛ فقالت: حِلّ، أنت أفسدتَها فأعْتِقها؛ قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا؛ قال: قد أخذتُها وهما حُرّتان، أرْجعا إليها طحينها، قالتا: أو نَفرُغْ منه يا أبا بكر ثم نردّه إليها؟ قال: وذلك إن شئتما.

ومرّ بجارية بني مُؤَمَّل، حيّ من بني عديّ بن كعب، وكانت مُسلمةً، وعمرُ بن الخطاب يُعذّبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشركٌ وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركْك إلا ملالةً؛ فتقول: كذلك فَعل الله بك. فابتاعها أبو بكر، فأعتقها.

(لام أبو قحافة ابنه لعتقه من أعتق فرد عليه):

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن عبدالله بن أبي عَتيق، عن عامر بن عبدالله بن الزُّبير، عن بعض أهله، قال:

قال أبو قحافة لأبي بكر: يا بنيّ، إني أراك تُعْتِق رِقابًا ضِعافًا، فلو أنك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ رجالًا جُلْدًا يمنعونك ويقومون دونَك؟ قال: فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبتِ، إني إنما أُريد ما أُريد، لله (عزّ وجلّ). قال: فيُتحدّث انه ما نزل هؤلاء الآياتُ إلا فيه، وفيما قال له أبوه: ﴿فأمَّا من أعْطَى واتَّقَى وَصَدَّقَ بالحُسْنَى﴾... إلى قوله تعالى: ﴿ومَا لأحدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تَجْزَى★ إلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهَ رَبِّهِ الأعلى★ ولَسَوْفَ يَرْضَى﴾[2].

(١) حل: يريد: تحللي من يمينك واستثني فيها، وأكثر ما تقوله العرب بالنصب.
(٢) سورة الليل، الآيات ٥ ـ ٢١.

(تعذيب قريش لابن ياسر، وتصبير رسول الله ﷺ له):

قال ابن إسحاق: وكانت بنو مَخْزُومٍ يَخرجون بعمَّار بن ياسر، وبأبيه وأمه[1]، وكانوا أهلَ بيت إسلام، إذا حَميَت الظهيرةُ، يُعذّبونهم بِرَمْضَاءِ[2] مكة، فيمرّ بهم رسولُ الله ﷺ فيقول، فيما بلغني: صبرًا آل ياسر، موعدُكم الجنَّة. فأمَّا أمُّه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام.

(ما كان يعذب به أبو جهل من أسلم):

وكان أبو جهل الفاسق الذي يُغْرِي بهم في رجال من قريش، إذا سَمِع بالرجل قد أسلم، له شرَف ومَنَعة، أنَّبه وأخْزاه وقال: تركتَ دين أبيك وهو خيرٌ منك، لنُسَفِّهَنَّ حِلْمَك، ولنُفَيِّلَنَّ[3] رأيَك، ولنضعنّ شرفَك؛ وإن كان تاجرًا قال: والله لنُكَسِّدنّ تجارتكَ، ولنُهلكنّ مالك؛ وإن كان ضعيفًا ضَربه وأغرى به.

(سئل ابن عباس عن عذر من امتنع عن الإسلام لسبب تعذيبه فأجاز):

قال ابن إسحاق: وحدثني حكيم بن جُبير عن سَعيد بن جُبير، قال: قلت لعبدالله بن عبَّاس: أكان المشركون يَبْلغون من أصحاب رسولِ الله ﷺ من العذاب ما يُعذَرون به في تَرْك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليَضْربون أحدَهم ويُجيعونه ويُعطِّشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدّة الضُّرِّ الذي نزل به، حتى يُعطيهم ما سألوه من الفِتْنة، حتى يقولوا له: اللاتُ والعزّى إلهُك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إنّ الجُعَل ليمرّ بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهُك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداءً منهم ممَّا يبلغون من جَهْده.

★ ★ ★

(١) واسمها سمية.

(٢) الرمضاء: الرمل الحارة من شدة حرارة الشمس.

(٣) لنفيلن رأيك: أي لنقبحنه ونخطئنه.

أقول: هذه فكرة مختصرة عما كان يحدث لهؤلاء الأكرمين من المستضعفين والأرقاء من تعذيب وتحقير...

وكان بلال... البطل العظيم... على رأس العبيد الذين أوذوا في الله...

رضي الله عنه وأرضاه!!!

أَنا مُحَمَّدٌ . . .

لمَـنْ هَذَا الْقَصْرُ . . . ؟!

حَدَّثَني عبدُاللهِ بنُ بُرَيْدَةَ... قال:

« حَدَّثَني أبي بُرَيْدَة... قال:

« أصْبَحَ رسولُ اللهِ... ﷺ...

« فدعا بلالًا... فقالَ:

« يا بِلالُ... بِمَ سَبَقْتَنِي إلَى الجَنَّةِ؟...

« ما دَخَلْتُ الجنةَ قَطُّ إلَّا سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أمامِي...

« دَخَلْتُ البارِحَةَ الجَنَّةَ... فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَك أمامِي...

« فأتَيْتُ عَلَى قَصْرٍ مُرَبَّعٍ مُشَرَّفٍ مِنْ ذَهَبٍ...

« فقُلْتُ: لمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟...

« فقالُوا: لِرَجُلٍ مِن العَرَبِ...

« فقُلْتُ: أنا عَرَبِي... لمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟...

« قالُوا: لِرَجُلٍ مِن قُرَيْشٍ...

« قُلْتُ: أنا قُرَشِي... لمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟...

« قالوا: لِرَجُلٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ...

« قُلْتُ: أنا مُحَمَّدٌ... لمَنْ هذا الْقَصْرُ؟...

« قالوا: لِعُمَرَ بنِ الخطَّابِ...

« فقالَ بلالٌ: يا رسولَ اللهِ ما أَذَّنْتُ قَطُّ إلَّا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ...

« وما أصَابَنِي حَدَثٌ قَطُّ إلَّا تَوَضَّأْتُ عِندَها...

« ورَأَيْتُ أنَّ للهِ عَلَيَّ رَكْعَتَيْنِ ...
« فقال رسولُ اللهِ ﷺ : بِهِا » .
[أخرجه الترمذي... وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريب.
ومعنى هذا الحديث أني دخلتُ البارحةَ الجنة.. يعني رأيت في المنام كأني دخلتُ الجنة... هكذا رُوي في بعض الحديث... ويُرْوَى عن ابن عباس أنه قال رؤيا الأنبياء وحيٌ].

★ ★ ★

ما أعظم هذه البشرى!!!
« يا بلالُ ...
« بِمَ سَبَقْتَنِي إلى الجنَّةِ ؟
« ما دَخَلْتُ الجنَّةَ قَطُّ ... إلا سمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أمامي .. » !!!
ثم كان من جواب بلال :
« يا رسولَ الله ...
« ما أذَّنْتُ قَطُّ إلا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ ...
« وما أصابني حَدَثٌ قطُّ إلا توضَّأتُ عندها ...
« ورأيتُ أنَّ للهِ عليَّ ركعَتَيْن ... » !!!
فماذا كان قول النبي ﷺ ؟!
كان جامعًا مانعًا ...
كلمة واحدة!!!
واحدة وليس اثنتين أو ثلاث ... فهل تكفي الكلمة الواحدة للحُكم في هذه القضية ؟!
نعم ... وكانت هذه الكلمة ...
« بهما » ؟!!
وصدَق رسول الله ﷺ : أُعْطيتُ جوامعَ الكَلِم!!!

كيف...

كانت...

الهجرَة...؟!

فلما عتت قريش على الله عز وجل، وكذبوا نبيه ﷺ، وعذبوا، ونفوا، من عَبَده ووحَّده وصدق نبيه، أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال.

فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإنَّ الله على نصرهم لقديرٌ★ الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله . . .﴾[1].

فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب، وتابعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وآوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار.

وقال: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنُونَ بها».

فخرجوا أرْسالا[2].

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

واجتمع أشراف قريش، وغيرهم ممن لا يُعَدّ من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم. فإنا

(١) سورة الحج، الآيتان ٣٩ - ٤٠.
(٢) طائفة بعد طائفة.

والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا.

فقال قائل منهم: أحبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابًا ثم تربصوا به الموت.

ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأيًا، ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابًا فتى جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يَعْمَدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا.

فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

فلما كانت ظلمة من الليل، اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه.

فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب «نم على فراشي، وتَسَجَّ ببُرْدِي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم».

وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

فلما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام فقال وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره لكنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم بعد موتكم، ثم جعلت لكم نارًا تحرقون فيها!

وخرج عليهم رسول الله ﷺ، ثم قال: «نعم أنا أقولُ ذلك، أنت أحَدُهُم»، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه.

فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته.

ثم عمدا إلى غارٍ بثَوْر جَبَلٍ بأسفل مكة، فدخلاه.

وانتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر الى الغار ليلًا.

فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ فلمس الغار لينظر أفيه سبُع أو حية؟ يقي رسول الله ﷺ بنفسه!.

فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر.

وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم.

حتى إذا مضت الثلاث، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما، وبعير له.

فركبا.. وانطلقا...

وأردف أبو بكر الصديق، عامر بن فهيرة مولاه خلفه، ليخدُمَهُما في الطريق.

وكانوا أربعة: رسول الله... وأبو بكر... وعامر... وعبدالله بن أرقط دليلهما.

فلما خرج بهما دليلهما سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى قدما المدينة لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل.

وكان بين خروجه من مكة ودخوله المدينة خمسة عشر يومًا لأنه أقام بغار ثور ثلاثة أيام.

ورسول الله ﷺ، يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة، وذلك بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة.

وكان الطريق الذي سلكوه غير الطريق المألوفة وأبعد منها.

وصوله إلى المدينة

وروي عن رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: لما سمعنا مخرج رسول الله ﷺ من مكة انتظرنا قدومه. كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرّتنا ننتظره، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الجبال، فإذا لم نجد ظلّاً دخلنا، وذلك في أيام حارة.

قالوا: حتى إذا كان اليوم الذي قدُوم رسول الله ﷺ فيه جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا.

وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود.

فصرخ اليهودي بأعلى صوته: هذا جدكم قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ، وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك.

وازدحم عليه الناس وما يعرفونه من أبي بكر.

حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك!

وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ.

بناء مسجد رسول الله

وبركت ناقة رسول الله ﷺ على موضع لغلامين يتيمين من بني النجار.

فأمر به رسول الله ﷺ أن يبني مسجداً، ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه.

فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه.

ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب.

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس.

بدء التنظيم

وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم «بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا كتابٌ من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين، من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس... وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردَّه إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوْف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم...».

يؤاخي بين المهاجرين والأنصار

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض.

«آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار.

فقال: «تآخوا في الله أخويْن أخويْن»، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: «هذا أخي».

فكان رسول الله ﷺ، سيد المرسلين، وإمام المتقين، الذي ليس له

خطير ولا نظير من العباد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين!

وكان حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله... وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين...

وبلال... مولى أبي بكر رضي الله عنهما... مؤذن رسول الله ﷺ... وأبو رُوَيْحة عبدالله بن عبد الرحمن الخَثْعمي... أخوين...

فلما دَوّن عمرُ بن الخطاب الدواوين بالشام... وكان بلالٌ قد خرج إلى الشام... فأقام بها مجاهدًا...

فقال عمر لبلال: إلى من تجعل ديوانَك يا بلال؟...

قال: مع أبي رُويحة... لا أفارقه أبدًا...

للأخوّة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني...

فضمّ إليه!!!

بلال . . .

مؤذِّن رسول الله . . .

ﷺ . . .

سَفَرًا وحَضَرًا . . .؟!

بدْء الأذَان؟!

« عن أَنَسٍ قالَ:
« ذكَرُوا النارَ والنَّاقُوسَ...
« فذَكَرُوا اليهودَ والنَّصارَى...
« فأُمِرَ بلَالٌ أنْ يَشْفَعَ الأذانَ وأنْ يُوتِرَ الإقامَةَ.

أخرجه البخاري

مطابقته للترجمة من حيث أن بدء الأذان... كان بأمر النبي ﷺ بلالًا... لأنهم كانوا يصلون قبل ذلك في أوقات الصلوات بالمناداة في الطرق: الصلاة الصلاة...

والدليل عليه حديث أنس أيضًا... « عن أنس رضي الله تعالى عنه: كانت الصلاة إذا حضرت على عهد رسول الله ﷺ سعى رجل في الطريق فينادي: الصلاة الصلاة... فاشتد ذلك على الناس فقالوا: لو اتخذنا ناقوسًا... فقال رسول الله ﷺ: ذاك للنصارى... فقالوا: لو اتخذنا بوقًا... فقال: ذاك لليهود... فقالوا: لو رفعنا نارًا... فقال رسول الله ﷺ: ذاك للمجوس... فأمر بلال... » الحديث...

« والناقوس » هو الذي يضربه النصارى لأوقات الصلاة...

« فأُمِرَ بلالٌ » الآمر هو رسول الله ﷺ.

ما يستنبط منه:

فيه التصريح بأن الأذان مثنى مثنى... والإقامة فرادى... وبه قال الشافعي وأحمد...

وظاهر الأمر للوجوب... لكن الأذان سُنّة...

وقال ابن المنذر إنه فرض كفاية في حق الجماعة في الحضر والسفر... وقال مالك: يجب في مسجد الجماعة...

يا بِلَالُ... قُمْ... فنَادِ بالصَّلَاةِ؟!

« ... أنَّ ابنَ عُمَرَ كانَ يقولُ:

« كانَ المسلمونَ حينَ قَدِمُوا المدينةَ يَجتمِعونَ فيَتَحَيَّنُونَ الصَّلاةَ...

« لَيْسَ يُنادَى لَهَا...

« فتَكَلَّمُوا يوْمًا في ذلك... فقالَ بَعْضُهُم: اتَّخذوا ناقوسًا مِثْلَ ناقُوس النَّصارَى...

« وقال بَعْضُهُم: بَلْ بُوقًا مِثْلَ قرْنِ اليَهُودِ...

« فقال عُمَرُ: أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا مِنْكم يُنادِي بالصَّلاةِ...

« فقال رسول الله ﷺ:

«يا بِلَالُ... قُمْ فَنَادِ بالصَّلاةِ» .

[أخرجه البخاري]

أمره ﷺ لبلال بالنداء بالصلاة كان بدء الأمر في هذا الباب فإنه لم يسبق أمر بذلك قبله... بل إنما قال ذلك ﷺ بعد تحينهم للصلاة وتشاورهم فيما بينهم ماذا يفعلون في الإعلام بالصلاة؟...

« فقال عمر أوَلا تَبعثون» أتقولون بموافقتهم ولا تبعثون؟!...

قال القرطبي: يحتمل أن يكون عبدالله بن زيد لما أخبر برؤياه وصدقه النبي

ﷺ... بادر عمر رضي الله تعالى عنه فقال «أولا تبعثون رجلًا ينادي» أي يؤذن بالرؤيا المذكورة... فقال النبي ﷺ: «قُم يا بلال»...

فإنه أندى صوتًا منك؟!

أما حديث عبدالله بن زيد... فأخرجه أبو داود...

«حدثنا أبو عبدالله بن زيد قال:

«لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة...

«طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسًا في يده...

«فقلت: يا عبدالله أتبيع الناقوس؟...

«قال: وما تصنع به؟...

«فقلت: ندعو به إلى الصلاة...

«فقال: ألا أدلك على ما هو خير من ذلك؟...

«قال: فقلت له: بلى...

«فقال: تقول:

«الله أكبر الله أكبر...

«الله أكبر الله أكبر...

«اشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن لا إله إلا الله...

«أشهد أن محمدًا رسول الله... أشهد أن محمدًا رسول الله...

«حيّ على الصلاة... حيّ على الصلاة...

«حيّ على الفلاح... حيّ على الفلاح...

«الله أكبر الله أكبر...

«لا إله إلا الله...

« ثم استأخر غير بعيد . . .
« ثم قال: ثم تقول إذا أقمت إلى الصلاة:
« الله أكبر الله أكبر . . .
« أشهد أن لا إله إلا الله . . .
« أشهد أن محمدًا رسول الله . . .
« حيّ على الصلاة . . .
« حيّ على الفلاح . . .
« قد قامت الصلاة . . .
« قد قامت الصلاة . . .
« الله أكبر الله أكبر . . .
« لا إله إلا الله . . .
« فلما أصبحت أتيت النبي ﷺ فأخبرته بما رأيته فقال:
« إنها لرؤيا حق إن شاء الله . . .
« فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت . . .
« فليؤذن به فإنه أندى صوتًا منك . . .
« فقمت مع بلال . . .
« فجعلت ألقيه عليه ويؤذّن به . . .
« قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو في بيته فخرج يجر رداءه يقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى . . .
« فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد » .

ما يستفاد منه:

فيه أن قوله: قم يا بلال فناد أو فأذّن» يدل على مشروعية الأذان قائمًا . . . ولا يجوز قاعدًا . . . وهو مذهب العلماء كافة . . .

وفيه منقبة ظاهرة لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه...

وفيه التشاور في الأمور المهمة... وأنه ينبغي للمتشاورين أن يقول كل منهم ما عنده... ثم صاحب الأمر يفعل ما فيه المصلحة...

أوّل مَن أذَّن بالصلاة...
جبريل عليه الصلاة والسلام؟!

فوائد:

الأولى: الاستشكال في اثبات الأذان برؤيا عبدالله بن زيد... لأن رؤيا غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يُبنى عليها حكم شرعي...

والجواب مقارنة الوحي لذلك...

وفي مسند الحارث بن أبي أسامة:

« أوّل من أذّن بالصلاة جبريل عليه الصلاة والسلام...

« في السماء الدنيا...

« فسمعه عمر...

« وبلال رضي الله تعالى عنهما...

« فسبق عمر بلالاً إلى النبي ﷺ وأخبره بها.

« فقال النبي ﷺ لبلال: سبقك بها عُمر »...

وقال الداودي « روي أن النبي ﷺ أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام بالأذان قبل أن يخبره عبدالله بن زيد وعمر بثمانية أيام »...

ذكره ابن اسحاق قال: وهو أحسن ما جاء في الأذان...

رسول الله ﷺ قد أريه ليلة الإسراء ؟!

وقال السهيلي:

الحكمة في تخصيص الأذان برؤيا رجل ولم يكن بوحي... فلأن سيدنا رسول الله ﷺ قد أريه ليلة الإسراء فوق سبع سماوات... وهو أقوى من الوحي... فلما تأخر فرض الأذان إلى المدينة... وأراد إعلام الناس بوقت الصلاة... فلبث الوحي حتى رأى عبدالله الرؤيا... فوافقت ما كان رآه في السماء... قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى»...

وعلم حينئذ أن مراد الله بما أراه في السماء أن يكون سُنَّة في الأرض... وقوى ذلك موافقة رؤيا عمر... مع أن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله تعالى عنه... واقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الأذان على غير لسان النبي ﷺ... لما فيه من التنويه بعبده والرفع لذكره... فلأن يكون ذلك على لسان غيره أنوه وأفخر لشأنه... وهو معنى قوله تعالى ﴿ورَفَعْنا لكَ ذِكْرَكَ﴾[1] .

وروى عبد الرزاق... وأبو داود... في المراسيل من طريق عبيد بن عمير الليثي أحد كبار التابعين...

«أن عمر رضي الله تعالى عنه لما رأى الأذان جاء ليخبر النبي ﷺ... فوجد الوحي قد ورد بذلك... فما راعه إلا أذان بلال... فقال له النبي ﷺ سبقك بذلك الوحي»...

الثانية:

---

(١) سورة الشرح، الآية ٤ .

هل أذّن رسول الله ﷺ قطّ بنفسه؟!

روى الترمذي... يرفعه إلى أبي هريرة:

«أنّ النبي ﷺ أذّن في سفر وصلّى بأصحابه وهم على رواحلهم... السماء من فوقهم... والبلة من أسفلهم»...

الثالثة:

الترجيع في الأذان وهو أن يرجع ويرفع صوته بالشهادتين بعدما خفض بها... وبه قال الشافعي ومالك... وقال أحمد: إن رجع فلا بأس به وان لم يرجع فلا بأس به...

وحجة أصحابنا (أي الحنفية) حديث عبدالله بن زيد من غير ترجيع فيه...

وأذان بلال بحضرة رسول الله ﷺ... سفرا وحضرا...

وهو مؤذن رسول الله ﷺ باطباق أهل الإسلام... إلى أن توفي رسول الله ﷺ...

ومؤذن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه إلى أن توفي...

من غير ترجيع...

الخامسة:

في أذان الفجر... الصلاة خير من النوم... مرتين بعد الفلاح...

لما روى الطبراني في معجمه الكبير باسناده عن بلال...

انه أتى النبي ﷺ يؤذنه بالصبح فوجده راقدًا... فقال: الصلاة خير من النوم مرتين...

فقال النبي ﷺ:

«ما أحسن هذا يا بلال... اجعله في أذانك»...

وأخرجه الحافظ أبو الشيخ في كتاب الأذان له... عن ابن عمر قال:

«جاء بلال إلى النبي ﷺ يؤذنه بالصلاة... فوجده قد أغفى...

«فقال: الصلاة خير من النوم...

«فقال له: اجعله في أذانك إذا أذنت للصبح...

«فجعل بلال يقولها إذا أذَّن للصبح»...

ورواه ابن ماجة من حديث سعيد بن المسيب «عن بلال أنه أتى النبي ﷺ يؤذنه بصلاة الفجر... فقيل هو نائم... فقال: الصلاة خير من النوم... الصلاة خير من النوم... فأقرت في تأذين الفجر»...

وخص الفجر به لأنه وقت نوم وغفلة.

السادسة:

في معاني كلمات الأذان... اختلفوا في معنى أكبر...

فقال أهل اللغة معناه كبير...

وقيل: معناه أكبر من كل شيء...

قوله «أشهد أن لا إله إلا الله»

معناه: أعلم وأبين... ومن ذلك شهد الشاهد عند الحاكم معناه قد بين له وأعلمه الخبر الذي عنده...

وقال الزجاجي: ليس كذلك وإنما حقيقة الشهادة هو تيقن الشيء وتحققه من شهادة الشيء أي حضوره...

وفي الشريعة الأذان إعلام مخصوص بألفاظ مخصوصة في أوقات مخصوصة...

ويقال: الإعلام بوقت الصلاة التي عينها الشارع بألفاظ مثناة...

وقال القرطبي وغيره:

الأذان على قلة ألفاظه... مشتمل على مسائل العقيدة...

لأنه بدأ بالأكبرية... وهي تتضمن وجود الله تعالى وكماله...
ثم ثنى بالتوحيد ونفي الشريك...
ثم باثبات الرسالة...
ثم دعا إلى الطاعة المخصوصة عقيب الشهادة بالرسالة... لأنها لا تعرف إلا من جهة الرسول...
ثم دعا إلى الفلاح... وهو البقاء الدائم... وفيه الإشارة إلى المعاد...
ثم أعاد ما أعاد توكيدًا...
ويحصل من الأذان الإعلام بدخول الوقت والدعاء إلى الجماعة وإظهار شعائر الإسلام...
والحكمة في اختيار القول له دون الفعل سهولة القول وتيسره لكل أحد في كل زمان ومكان والله أعلم.

★ ★ ★

وأقول: من تلك اللحظة... التي قال فيها رسول الله ﷺ:
«يا بلالُ... قُمْ... فنَادِ بالصلاةِ»...
من تلك اللحظة... وبلال هو مؤذن رسول الله ﷺ...
إلى أن توفي رسول الله ﷺ!!!
ما أعظم ما أوتي بلال!!!
إنَّه لذو حظٍّ عظيم!!!

إذا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ . . .
فقُولُوا . . .
مِثْلَ ما يَقُولُ . . .؟!

وأخرى أعظم وأكبر!!! .

أنَّ بلالًا يُرَدِّد . . . والجميع يقول مِثْل ما يقول!!!

وعلى رأسهم إمام النبيين . . . صلى الله تعالى عليه وسلم!!!

كيف كان هذا ؟!

« عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ . . .

« أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

« إذا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ المُؤَذِّنُ » .

[أخرجه البخاري]

هذا جمال عجيب!!!

بلال يؤذن لكل فريضة صلاة فيقول: الله أكبر الله أكبر . . .

وها هو رسول الله ﷺ الذي لا مِثْل له . . . يقول مِثْل ما يقول بلال: الله أكبر اللهُ أكبر!!!

أيّ شرف سيدي بلال . . . نلتَ آنذاك؟!!

رسول الله ﷺ يقول مِثْل ما تقول؟!!

بل وجميع السامعين والحاضرين من صحابة رسول الله ﷺ . . . والصحابيات . . .

جميعهم وجميعهن يقولون مِثْل ما تقول؟!!

نشيد مقدس... ينشده بلال كلمة كلمة...

والجميع يقولون مِثْل ما يقول كلمةً كلمة!!!

أمواج تتصاعد إلى ربها... معلنة أعلى وأرقى وأطهر ما يمكن أن يصدر عن البشر!!!

«فقولوا مثل ما يقول المؤذن» وإنما قال «مثل ما يقول المؤذن» بلفظ المضارع... ولم يقل مثل ما قال المؤذن بلفظ الماضي... ليكون قول السامع بعد كل كلمة مثل كلمتها...

والصريح في ذلك ما رواه النسائي من حديث أم حبيبة:

«أنّ النبي ﷺ إذا كان عندها فسمع المؤذن...

«قال مِثْل ما يقول... حين يسكت»...

ما يستفاد منه:

احتج بقوله «فقولوا» أصحابنا أن إجابة المؤذن واجبة على السامعين لدلالة الأمر على الوجوب...

وبه قال ابن وهب من أصحاب مالك... والظاهرية...

ألا ترى أنه يجب عليهم قطع القراءة... وترك الكلام... والسلام وردّه... وكل عمل غير الإجابة... فهذا كله أمارة الوجوب...

وقال مالك والشافعي وأحمد وجمهور الفقهاء: الأمر في هذا الباب على الاستحباب دون الوجوب...

وقال النووي: تستحب إجابة المؤذن بالقول مثل قوله لكل من سمعه من متطهر ومحدث وجُنُب وحائض وغيرهم... ممن لا مانع له من الإجابة.

فمن أسباب المنع أن يكون في الخلاء أو جماع أهله أو نحوها...

ومنها أن يكون في صلاة...

ولو سمع الأذان وهو في قراءة وتسبيح ونحوهما قطع ما هو فيه

وأتى بمتابعة المؤذن...

ويتابعه في الإقامة كالأذان إلا أنه يقول في لفظ الإقامة: أقامها الله وأدامها...

وإذا ثوّب المؤذن في صلاة الصبح فقال: الصلاة خير من النوم... قال سامعه: صدقت وبررت...

وقال أصحابنا (الحنفية): يجب على السامع أن يقول مثل ما قال المؤذن إلا قوله حيّ على الصلاة فإنه يقول مكان قوله حيّ على الصلاة لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... ومكان قوله حيّ على الفلاح: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن...

ينبغي أن لا يتكلم السامع في خلال الأذان والإقامة... ولا يقرأ القرآن... ولا يسلم ولا يرد السلام... ولا يشتغل بشيء من الأعمال سوى الإجابة... ولو كان في قراءة القرآن يقطع ويسمع الأذان ويجيب!!!

أوَّلُ مَن يُكسى . . .

مِن حُلَل الجنَّة . . .

بعد النبيِّين والشهداء . . .

بلال . . .

وصالح المؤذّنين . . . ؟!

« ان رسول اللهِ ﷺ قال:

« إذا نُودي للصلاةِ أَدْبَرَ الشيطانُ ولَهُ ضُرَاطٌ حتَّى لا يَسْمَعَ التأذينَ...

« فإذا قَضَى النداءَ أَقْبَلَ...

« حتَّى إذا ثُوِّبَ بالصلاة أَدْبَرَ...

« حَتَّى إذا قَضَى التَثْويبَ أَقْبَلَ...

« حتَّى يَخْطرَ بيْنَ المرء ونفْسِه يقولُ: اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا...

« لما لَمْ يكُنْ يَذْكُرُ...

« حتى يظَلَّ الرجلُ لا يَدْرِي كَمْ صَلَّى...

[أخرجه البخاري]

« إذا نودي للصلاة » اي إذا أذّن لأجل الصلاة...

« أدبر الشيطان » ولّى الشيطان.

« له ضُراط » تمثيل لحال الشيطان عند هروبه من سماع الأذان...

« فإذا قضى النداء » قضى المؤذن النداء...

« حتى إذا ثُوّب بالصلاة » التثويب ها هنا الإقامة...

« اذكر كذا اذكر كذا » وزاد مسلم في رواية « فهنّاه ومنّاه وذكره من

حاجته ما لم يكن يذكر»...

حتى يظل الرجل» حتى يصير الرجل ما يدري كم صلى من الركعات!!!

ما يستفاد منه:

فيه أن الأذان له فضل عظيم حتى يلحق الشيطان منه أمر عظيم...

وكذلك المؤذن له أجر عظيم... إذ كان أذانه احتسابًا لله تعالى...

في صحيح ابن خزيمة وابن حبان:

« المؤذن يغفر له مدّ صوته...

« ويستغفر له كل رطب ويابس...

« وشاهد الصلاة يكتب له خمس وعشرون حسنة ويكفر عنه ما بينهما»...

وعند أحمد:

« ويصدقه كل رطب ويابس سمعه»...

وعند أبي الشيخ:

« كل مدرة وصخرة سمعت صوته...

وفي كتاب الفضائل لحميد بن زنجويه من حديث ابي هريرة مرفوعًا: « يكتب للمؤذن عند أذانه أربعون ومائة حسنة وعند الإقامة عشرون ومائة حسنة»...

وفي كتاب أبي القاسم الجوزي عن أبي سعيد وغيره: « ثلاثة يوم القيامة على كتب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب» الحديث وفيه « رجل أذّن ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله تعالى»...

وعند السراج عن أبي هريرة بسند جيد: « المؤذنون أطول الناس أعناقًا لقولهم لا إله إلا الله»...

وفي لفظ « يعرفون بطول أعناقهم يوم القيامة»...

اوّل مَن يُكسى مِن حُلَل الجنَّة؟!

وفي كتاب الصحابة لأبي موسى... من حديث كثير بن مرة الحضرمي مرفوعًا:

« أول من يكسى من حلل الجنة...

« بعد النبيين عليهم الصلاة والسلام والشهداء...

« بلال...

« وصالح المؤذنين »...

عن ثابت عن أنس: « يد الله تعالى على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه... أوْ انه ليغفر له مد صوته وأين بلغ...

زاد أبو الشيخ من حديث النعمان:

« فإذا فرغ قال الرب تعالى: صدقت عبدي وشهدت شهادة الحقّ فأبشر »..

بلالٌ . . .

كان يرفع صوْتَه . . .

بالنداء . . . ؟!

وقال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيـز: «أَذِّنْ أَذَانًا سَمْحًا وإلا فاعْتَزِلْنا».

[البخاري]

لعل هذا المؤذن لم يكن يحسن مد الصوت إذا رفع بالأذان فعلمه وليس أنه نهاه عن رفع الصوت...

أو كأنه كان يطرب في صوته ويتنغم ولا ينظر إلى مد الصوت مجردًا عن ذلك فأمره عمر بن عبد العزيز بالسماحة وهي السهولة...

وهو أن يسمح بترك التطريب ويمد صوته...

ويدل على ذلك ما رواه الدارقطني باسناد فيه لين من حديث ابن عباس:

«انه ﷺ كان له مؤذن يطرب فقال له ﷺ: «المؤذن سهل سمح... فإن كان أذانك سهلًا سمحا وإلا فلا تؤذن»...

ويحتمل ان هذا المؤذن لم يكن يفصح في كلامه ويغمغم فأمره عبد العزيز بالسماحة في أذانه وهي ترك الغمغمة بإظهار الفصاحة وهذا لا يكون إلا بمد الصوت بحدة...

وروى مجاشع عن هارون بن محمد عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ **«لا يؤذن لكم إلا فصيح»...**

«فاعتزلنا» أي فاترك منصب الأذان...

★ ★ ★

« أنّ أبا سَعيدٍ الخُدْرِيَّ قال لهُ:
« إنِّي أراكَ تُحِبُّ الغَنَمَ والباديَةَ... فإذا كنتَ في غَنَمِكَ أو باديتِكَ فأذَّنت بالصلاةِ فارْفَعْ صَوْتَكَ بالنداءِ فإنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المُؤذِّنِ جِنٌ ولا إنْسٌ ولا شَيْءٌ إلا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القيامةِ...
« قال أَبو سعيدٍ: سَمِعْتُهُ مِن رسولِ اللهِ ﷺ ».

[أخرجه البخاري]

« قال له » أي قال أبو سعيد لعبدالله بن عبد الرحمن...

« والبادية » أي وتحب البادية أيضًا... وهي الصحراء التي لا عمارة فيها...

« مدى صوت » أي لا يسمع غاية صوت المؤذن...

« ولا شيء » يشمل الحيوانات والجمادات...

« إلا شهد له » المراد من الشهادة اشتهاره يوم القيامة فيما بينهم بالفضل وعلو الدرجة... وكما أن الله يفضح قومًا بشهادة الشاهدين... كذلك يكرم قومًا بها تجميلًا لهم وتكميلًا لسرورهم... وتطمينًا لقلوبهم...

« سمعته من رسول الله ﷺ » أي سمعت هذا الكلام الأخير وهو قوله « فإنه لا يسمع » إلى آخره...

ما يستفاد منه:

فيه استحباب رفع الصوت بالأذان... ليكثر من يشهد له... ولو أذّن على مكان مرتفع ليكون أبعد لذهاب الصوت...

وكان بلال رضي الله تعالى عنه يؤذن على بيت امرأة من بني النجار...

بيتها أطول بيت حول المسجد...

★ ★ ★

وأقول: كان هذا شيئًا قليلًا من كثير... ورد في الآثار... عن كيفية بدء الأذان... وكيف كان يؤذن بلال... وما أعطى الله بلالًا من الفضل في هذا السبيل...

أنَّه كان الرائد الأول...

أوَّل مَن أمره ﷺ بالأذان...

فنال بذلك فضل السبق إلى تلك المكرمة...

ثم نال فضل مطالعة الوجه الكريم... وجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم... كلما نادى بلال لصلاة... فأقبل ﷺ ليؤم أصحابه... وبلال إذا رآه مقبلًا جعل يقيم الصلاة!!!

أي شرف وأي كرامة نالها بلال رضي الله تعالى عنه؟!

كلما حان وقت صلاة نادى بالصلاة...

وكلما جاء ﷺ ليؤم أصحابه... أقام بلال للصلاة بين يديه!!!

في رواية جابر بن سمرة:

«كان بلال يؤذن إذا دحضت الشمس...

«فلا يقيم حتى يخرج النبي ﷺ...

«فإذا خرج الإمام أقام الصلاة حين يراه»...

ما كان يقوله بلال قبل الأذان؟!

قال ابن اسحاق:

عن عُروة بن الزبير...

عن امرأة من بني النجار... قالت:

كان بيتي من أطول بيت حول المسجد... فكان بلال يؤذّن عليه

للفجـر كـلّ غـداة... فيـأتي بسَحَـر... فيجلس على البيت ينتظـر الفَجر... فإذا رآه تمطّى ثم قال: اللهمّ إني أحمدك وأستعينك على قريش أن يُقيموا على دينك...

قالت: والله ما علمته كان يتركها ليلةً واحدةً.

عندما مرض... أبو بكر...
وعامر...
وبلال...؟!

قال ابن إسحاق:

عن عائشة رضي الله عنها... قالت:

« لما قَدم رسول الله ﷺ المدينة... قدِمها وهي أوْبأ أرضِ الله من الحُمَّى...

« فأصاب أصحابه منها بلاءٌ وسُقْم...

« فصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ...

« قالت: فكان أبو بكر... وعامر بن فُهيرة... وبلال... مَوْليا أبي بكر... مع أبي بكر في بيت واحد...

« فأصابتهم الحمى...

« فدخلتُ عليهم أعُودهم... وذلك قبل أن يُضْرَب علينا الحجاب...

« وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدّة الوَعْك[1]...

« فدنوتُ من أبي بكر فقلتُ له:

كيف تجدُك يا أبتِ؟...

« فقال:

---

(١) الوَعْك: شدة ألم المرض.

كلّ امرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهْله
والموتُ أدْنى من شِراك نَعْلِه
«قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول...
«قالت: ثم دنوتُ إلى عامر بن فُهَيْرة فقلت له: كيف تجدُك يا عامر؟...
«فقال:

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذَوْقِه   إنّ الجبَان حتفُه من فَوْقه
كلّ امرئ مجاهد بطَوْقه   كالثّور يحْمي جِلْده برَوْقه[1]

«قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول!...
«قالت: وكان بلال إذا تركتْه الحمّى... اضطجع بفناء البيت ثم رفع عَقيرته[2] فقال:

ألا ليتَ شِعْري هل أبيتنّ ليلةً   بفَخّ وحَوْلي إذْخُرٌ وجَليل[3]
وهل أردَن يومًا مياه مَجنَّةٍ[4]   وهل يَبْدُون لي شامةٌ وطَفيل

قال ابن هشام: شامة وطُفيل: جبلان بمكة.

دعاء الرسول ﷺ
ينقل وباء المدينة إلى مَهْيَعَة؟!

قالت عائشة رضي الله عنها: فذكرتُ لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم...

---

(١) الروق: القرن.
(٢) رفع عقيرته: أي رفع صوته.
(٣) فخ: موضع خارج مكة... والإذخر: نبات طيب الرائحة.
(٤) مجنة: اسم سوق العرب في الجاهلية.

«فقلت: إنهم ليَهْذُون... وما يَعقلونَ من شدّة الحمى...
«قالت: فقال رسول الله ﷺ:
«اللهمّ حبِّب إلينا المدينة...
«كما حبَبت إلينا مكة... او أشدّ...
«وبارك لنا في مُدّها وصاعها[1]...
«وانقل وباءها إلى مَهْيَعَة».
«ومَهْيَعَةُ: الجُحْفة[2]».

ما جهد المسلمين من الوباء؟!

قال ابن اسحاق:
عن عبدالله بن عَمْرو بن العـاص:
أن رسول الله ﷺ لما قدِم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حُمّى المدينة...
حتى جَهدوا مرضًا...
وصرف الله تعالى ذلك عن نبيِّه ﷺ...
حتى كانوا ما يصلّون إلا وهُمْ قعود...
قال: فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ وهم يصلُّون كذلك، فقال لهم: اعلموا أن صلاة القاعد على النِّصْف من صلاة القائم...
قال: فتجشّم[3] المسلمون القيامَ على ما بهم من الضعْف والسُّقْم التماس الفضل.

★ ★ ★

(١) يعني الطعام الذي يكال بالمد وبالصاع.
(٢) مهيعة: قريب من الجُحفة. وهي ميقات أهل الشام.
(٣) تجشم: تكلف.

أقول: وذاق بلال آلام الحُمّى...
ثم شفاه الله تعالى... ليواصل رسالته التي كتب الله له...
أن ينادي بالصلاة كما أمره رسول الله ﷺ!!!

بلال . . .

أحد أبطال . . .

غَزوة بَدر العُظمَى . . . ؟

كيف كانت الغزوة؟

ثم إن رسول الله ﷺ، سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام، في عير لقريش، وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون.

وندب المسلمين إليهم وقال: «هذه عيرُ قريشٍ فيها أموالُهم، فاخرُجُوا إليها لعل الله يُنَفِّلِكُمُوهَا».

فانتدب الناسُ، فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يَلْقى حَرْبًا.

وكان أبو سفيان - حين دنا من الحجاز - يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك.

فَحَذر عند ذلك.

فاستأجر ضَمضَم بن عمرو، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشًا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لنا في أصحابه.

فخرج ضمضم سريعًا إلى مكة... وصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره قد قطع أنف بعيره، وحوَّل رحله، وشقَّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة[1] أموالكم مع أبي سفيان: قد عرض لها محمد في أصحابه، لا

---

(١) اللطيمة: الابل تحمل الطيب.

أرى أن تدركوها، الغوْث الغوث.

فتجهز الناس سراعًا، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلا.

وَأَوْعَبَت قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد: إلا أن أبا لهب بن عبدالمطلب قد تخلف وبعث مكانه العاصي بن هشام.

وخرج رسول الله ﷺ في ليالٍ مضت من شهر رمضان في أصحابه.

خرج يوم الاثنين لثمان ليال خَلَوْنَ من شهر رمضان.

واستعمل عَمْرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس.

ودفع اللواء إلى مصْعَب بن عمير، وكان أبيْض.

وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العُقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.

وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيرًا، فتناوبوها...

وجعل على الساقة، قيس بن أبي صَعْصَعَة.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ.

فسلك رسول الله ﷺ طريقه من المدينة إلى مكة، فلما كان على واد يقال له ذَفِرَان نزل.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم.

يستشير أصحابه

فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش.

فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن.

ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن.

ثم قام المقدادُ بن عَمْرو فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله فنحن

معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فاذْهَبْ أنت وربُّكَ فقاتلا إنَّا هاهنا قَاعِدُون﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ[2] الغِمادِ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عَلَيَّ أيها الناس»... وإنما يريد الأنصار.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟.

قال: أجل.

قال: فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله كما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينُك، فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك.

سيروا وأبشروا...

ثم قال: «سيروا، وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظرُ إلى مصارعِ القوم».

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذَفِرَان، ثم نزل قريبًا من بدر، فركب هو

(١) سورة المائدة، الآية ٢٤.
(٢) موضع بناحية اليمن.

ورجل منْ أصحابه هو أبو بكر الصديق، يسأل عن أخبار قريش.

فلما أمسى بعث عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا غلامين لقريش فأتوا بهما.

فقال لهما رسول الله ﷺ: «كَمِ القَوْمُ»؟

قالا: كثير.

قال: «ما عدّتُهم»؟

قالا: لا ندري.

قال: كم ينحرون كل يوم»؟.

قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «القومُ فيما بين التسعمائة والألْف».

وأقبل أبو سفيان حتى تقدم العير حَذِرا، حتى ورد الماء.

فرجع إلى أصحابه سريعًا فضرب وجه عيره عن الطريق، وأخذ بها جهة الساحل، وترك بدرًا بيسار، وانطلق حتى أسرع.

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا، فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الْجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، ويسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها، فامضوا.

ومضت قريشٌ حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي.

وبعث الله السماء، وكان الوادي لينًا لم يبلغ أن يكون رملا.

فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ماء لبّد لهم الأرض.

وجعل ترابها لا يثور، ومهل لهم السير فيه، ولم يمنعهم من المسير.

وأصاب قريشًا منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

ينزل على رأي الحباب!

فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

فقال الحبَّابُ بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: «بلْ هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ».

قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله. ثم نفسد ما وراءه من الآبار (بأن يقذفوا فيه أحجارًا وترابًا فيفسدوها على أعدائهم) ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء.

ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشَرْت بالرأي».

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار، حتى إذا أتى أدنى ماءٍ من القوم نزل عليه، ثم أمر بالآبار فأفسدت، وبنى حوضًا على البئر الذي نزل عليه، فمُلِئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

بناء العريش

وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا. وإن كانت الأخرى جلَسْتَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حُبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير.

ثم بُني لرسول الله ﷺ عريشٌ... فكان فيه.

وقد ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني...».

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ ثلثمائة رجل جعلوا يتكلمون في الرجوع.

فقام عُتبة بن ربيعة خطيبًا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، وابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب...

فقال أبو جهل: كلَّا! والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد!.

بدء المعركة

وخرج الأسود بن الأسود قائلا: أعاهد الله لأشربَنَّ من حوضهم، أو لأهدِمَنَّه، أو لأموتنَّ دونه.

فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حمزة فأطار قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض.

فوقع على ظهره تشْخُبُ رجله دمًا، نحو أصحابه.

ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يَبرَّ يمينه.

واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

المبارزة

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة.

حتى إذا خرج من الصف دعا إلى المبارزة.

فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة.

فقالوا: من أنتم؟

فقالوا: رهطٌ من الأنصار.

فقالوا: ما لنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد... أخرج إلينا أكْفَاءنا من قومنا.

فقال رسول الله ﷺ: «قُمْ يا عبيدةُ بن الحرثِ، قم يا حمزة، قُمْ يا عليّ».

فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟

قال عبيدة: عبيدة.

وقال حمزة: حمزة.

وقال عليّ: عليّ.

قالوا: نعم... أكفاء كرام.

فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة وبارز عليّ الوليد بن عتبة.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله.

وأما عليّ فلم يمهل الوليد أن قتله.

واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه.

وكر حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض.

ورسول الله ﷺ في العريش، معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سَبْعَ عشرة من شهر رمضان.

ثم عدّل رسولُ الله ﷺ الصفوف، ورجع إلى العريش، فدخله ومعه فيه أبو بكر، ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلكْ هذه العصابة اليومَ لا تُعْبَدُ».

وأبو بكر يقول: «يا نبي الله، بعضَ مناشدتك ربك، فإن الله مُنجزٌ لك ما وعدك.

أول قتيل من المسلمين

وقد رُمي مِهْجَعٌ ـ مولى عمر بن الخطاب ـ بسهم فقُتل.

فكان أول قتيل من المسلمين.

ثم رمي حارثة بن سراقه ـ وهو يشرب من الحوض ـ بسهم فقُتل.

النبي يحرض أصحابه على القتال

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم، وقال: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلُهُم اليوم رجل فيقتلُ صابرًا محتسبًا، مقبلا غير مُدبر، إلا أدخله الله الجنة».

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشًا، ثم قال: «شاهَتِ الوجوه» ثم رماهم بها.

وأمر أصحابه فقال: «شدوا».

فكانت الهزيمة.

فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر «أحدٌ أحدٌ».

وأمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في البئر، فطرحوا فيه.

ووقف عليهم فقال: «يا أهلَ القليبِ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا»؟

فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قومًا موتى؟!

فقال: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق».

ذيول المعركة

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بما في المعسكر مما جمع الناس، فجمع، فاختلف المسلمون فيه.

فقال من جمعه: هو لنا.

وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه.

وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ: والله ما أنتم بأحقَّ به منَّا.

فنزعه الله من أيديهم جميعًا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء.

ثم بعث رسول الله ﷺ عند الفتح عبدالله بن رَوَاحة بشيرا إلى أهل العالية، بما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ، وعلى المسلمين.

وبعث زَيْدَ بن حارثة إلى أهل السَّافلة.

ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلا إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين.

واحتمل رسول الله ﷺ معه الغنائم التي أصيبت من المشركين.

ثم قسمه ﷺ وهو في الطريق على المسلمين على السواء.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين.

ثم إن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال: « استوْصُوا بالأسَارَى خيْرًا ».

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحَيْسُمَانُ بن عبدالله، فقالوا: ما وراءك؟

قال: قُتل عُتبة، وشيبة، وأبو الحكم بن هشام، وأُمَيَّة بن خلف... وجعل يعدد أشراف قريش.

وما لبث أبو لهب أن مات بعد سبع ليال من إذاعة خبر هزيمة قريش المنكرة!

قالوا: وناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمد وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم عاجلا، حتى لا يشتد عليكم محمد وأصحابه في الفداء.

ثم بعثت قريش في فداء الأسارى.

وكان فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل، إلى ألف درهم، إلا من لا شيء له، فمنَّ رسول الله ﷺ عليه.

* * *

اقول: كان بلال أحد أبطال تلك المعركة العظمى... غزوة بدر الكبرى...

بل وكان له شرَف قتل أُمَيَّة بن خَلَف... رأس الكفر...

فكيف كان ذلك؟!

بلال يصرخ بأعلى صوته:
رأس الكُفر أُميَّةَ بن خَلَف...
لا نجوتُ إن نجا...؟!

قال ابن إسحاق: عن عبدالرحمن بن عوف قال:

« كان أمَيَّة بن خَلَف لي صديقا بمكة...

« وكان اسمي عبدَ عمرو...

« فتسمَّيت حين أسلمت، عبدالرحمن، ونحن بمكة...

« فكان يَلْقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو... أرغبتَ عن اسم سمّاكَه أبواك؟!...

« فأقول: نعم...

« فيقول: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئا أدعوك به... أمّا أنت فلا تُجَيبني باسمك الأوّل، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف...

« قال: فكان إذا دعاني: يا عبد عمرو... لم أُجبه...

« قال: فقلت له: يا أبا عليّ... اجعل ما شئت...

« قال: فأنت عبدُ الإله...

« قال: فقلت: نعم...

« قال: فكنت إذا مررتُ به وهو واقِفٌ مع ابنه... عَلِيّ بن أميّة... آخذ بيده... ومعي أدراع قد استلبتُها... فأنا أحملها[1]...

---

(١) كان ذلك في معركة بدر.

« فلما رآني قال لي: يا عبدَ عمرو؟...

« فلم أُجِبْه...

« فقال: يا عبد الإله؟...

« فقلت: نعم....

« قال: هل لك فيّ؟... فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك؟...

« قال: قلت: نعم... هاالله ذا[1]...

« قال: فطرحتُ الأدراع من يدي... وأخذت بيده ويد ابنه...

« وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ... أما لكم حاجة في اللبن؟...

« قال: ثم خرجت أمشي بهما...

قال ابن هشام: يريد باللبن، أن من أسرني افتديتُ منه بإبل كثيرة اللبن...

قال ابن إسحاق:

حدثني عبدالواحد بن أبي عَوْن... عن سعد بن إبراهيم... عن أبيه عبدالرحمن بن عَوْف قال:

« قال لي أُمَيَّة بن خَلَف... وأنا بينه وبين ابنه... آخذٌ بأيديهما: يا عبد الإله... مَن الرجُل منكم المُعْلم بريشة نعامة في صدره؟...

« قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطّلب...

« قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل!...

« قال عبدالرحمن:

« فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلالٌ معي...

« وكان هو الذي يُعذّب بلالا بمكة على ترك الاسلام...

---

(١) هاالله ذا: ها أنذا مقسم.

• فيُخْرجه إلى رَمْضاء[1] مكة إذا حَميت...
• فيُضْجعه على ظهره!!!
• ثم يأمر بالصَّخرة العظيمة فتوضع على صَدره!!!
• ثم يقول: لا تزال هكذا أو تُفارقَ دين محمد!!!
• فيقول بلال: أحَدٌ أحَد!!!

رأس الكُفْر... أُمَيَّة بن خَلَف لا نجوتُ إن نجا؟!

• قال: فلما رآه...
• قال: رأس الكُفْر... أُمَيَّة بن خَلَف... لا نجوتُ... إن نجا!!!
• قال: قلت: أي بلال... أبأسيريَّ؟!...
• قال: لا نجوتُ إن نجا!!!
• قال: قلت: أتسمع يا بن السَّوداء...
• قال: لا نجوتُ إن نجا...
• قال: ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله... رأس الكُفر أُمَيَّة بن خَلَف... لا نجوتُ إن نجا!!!

فقَطَّعوها بسيوفها؟!

• قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المُسْكة[2]!!!
• وأنا أذبُّ عنه...

---

(١) الرمضاء: الرمل الحار من الشمس.
(٢) المُسْكة: جعلونا في حلقة كالسوار وأحدقوا بنا.

« قال: فأخلف[1] رجلَ السيفَ... فضرب رِجْلَ ابنه فوقع...

« وصاحَ أمَيَّة صيحة ما سمعتُ مثلَها قطّ...

« قال: فقلت: انجُ بنفسِك... ولا نجاءَ بك... فوالله ما أُغني عنك شيئا...

« قال: فهبرُوها[2] بأسيافهم... حتى فرغوا منها!!!

« قال: فكان عبدالرحمن يقول: يرحم الله بلالا... ذهبت أدْراعي... وفجعني بأسيريّ!!!

★ ★ ★

اقول: وهكذا قَتَلَ بلالٌ أوْ شارك في قَتْلِ أمَيَّة بن خَلَف وابنه...

وخَرَّ هذا الكلب صريعا...

جزاء فجوره وإجرامه وخسَّته!!!

يقول عبدالرحمن بن عوف في وصف مقتل أمَيَّة وابنه: فهبروهما بأسيافهم!!!

فقطَّعوهما... أمَيَّة وابنَه... بأسيافهم!!!

أسياف الصحابة... أسياف الحق...

ومن بينها سيف بلال... المظلوم... المعَذّب... طريحا على ظهره في نار رمضاء مكة...

كان هذا الكلب أمية بن خَلَف... هذا الوغد اللئيم... هو الآمر بتعذيب سيدي بلال!!!

كم أُوذِيَ أصحاب رسول الله ﷺ لنصرة هذا الدين؟!!

وجئنا نحن لنفرّط ونُضَيِّع ما صنعوا!!!

---

(١) فأخلف رجل السيف: إذا سله من غمده.

(٢) هبروهما: قطعوهما.

رسول الله ﷺ ...

يقول لبلال:

« ماذا صنعتَ بنا

يا بلال » ...؟!

قال ابن إسحاق:

وحدثني الزُّهري... عن سعيد بن المُسيِّب... قال:

« لما انصرف رسول الله ﷺ من خيْبر...

« فكان ببعض الطريق...

« قال من آخر الليل: مَن رجل يحفظ علينا الفَجر لعلَّنا ننام؟...

« قال بِلال: أنا يا رسول الله... أحفظه عليك...

« فنزل رسول الله ﷺ...

« ونزل الناس فناموا...

« وقام بلال يصلي...

« فصلى ما شاء الله عزّ وجلّ أن يصلي...

« ثم استند الى بعيره... واستقبل الفَجْرَ يَرمُقه...

« فغلبَتْه عينه... فنام...

« فلم يُوقظهم إلا مَسُّ الشمس!...

« وكان رسولُ الله ﷺ أولَ أصحابه هَبّ...

« فقال: ماذا صنعتَ بنا يا بلال؟...

« قال: يا رسول الله... أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك...

« قال: صدقتَ...

« ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير...

« ثم أناخ فتوضأ...

« وتوضأ الناس...

« ثم أمر بلالا فأقام الصلاة...

« فصلى رسولُ الله ﷺ بالناس...

« فلما سلَّم أقبل على الناس فقال:

« إذا نَسيتم الصلاة فصلُّوها إذا ذكَرْتموها...

« فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[1].

★ ★ ★

اقول: وهكذا تجد بلالًا مع النبيّ ﷺ... دائما... سَفَرا وحَضَرا!!!

---

(١) سورة طه، الآية ١٤.

بلال يَنعم...

بصُحبة النبيّ...

ﷺ...

في كُلِّ صلاة...؟!

مَنَّ الله تعالى... على بلال رضي الله عنه... بشيء خصّه به...
ذلك أنه كان يَنْعَم برؤية الوجه النبوي الكريم... كلما حانت الصلاة...
لأنه هو المؤذن لتلك الصلاة... وهو المقيم لها...
وإنه لـنعيم عظيم!!!

★ ★ ★

وَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ صَلَّى مَعَهُ؟!

«عن البراء بن عازب...
«أن نبي الله ﷺ قال:
«إنَّ اللهَ وملائكَتَهُ يُصلّونَ على الصَّفِّ المُقَدَّمِ...
«والمؤَذِّنُ يُغْفَرُ لهُ بِمَدِّ صَوْتِهِ...
«ويُصَدِّقُهُ مَن سَمِعَهُ مِن رَطْبٍ ويَابِسٍ...
«ولَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَن صَلَّى مَعَهُ».

[أخرجه النَّسائي]

«المؤذن يغفر له بمد صوته» أي ممتد صوته... وفي المعنى على هذا وجهان: أحدهما معناه لو كانت ذنوبه تملأ هذا المكان لغفرت له... وهو نظير قوله ﷺ اخباراً عن الله تعالى لو جئتني بقراب الأرض خطايا أي بملئها من الذنوب... والثاني: يغفر له من الذنوب ما فعله في زمان مقدر بهذه المسافة...

«ويصدقه من سمعه» أي يشهد له يوم القيامة...

★ ★ ★

أقول: الى أي مدى بلغت فضائل بلال... وقد أعطاه الله تلك العطايا الكبرى؟!

ثُمَّ أذَّن بلالٌ... ثُمَّ أقامَ؟!

«أنَّ جابرَ بنَ عبدِاللهِ قالَ:

«سارَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى أتَى عَرَفَة...

«فوَجَدَ القُبَّة قد ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةَ...

«فنَزَلَ بها... حتَّى إذا زاغَتِ الشمسُ أمَرَ بالعَصْواءِ فرُحِّلَتْ لهُ...

«حتى إذا انتهى إلى بَطْنِ الوَادِي خَطَبَ النَّاسَ...

«ثُمَّ أذَّنَ بِلَالٌ...

«ثُمَّ أقامَ...

«فصَلَّى الظُّهْرَ...

«ثُمَّ أقامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ...

«ولم يُصَلِّ بَيْنَهُما شيْئًا».

[أخرجه النَّسائي]

★ ★ ★

اقول: بلال دائما... معه ﷺ...
معه في كل مشهد من مشاهد حجة الوداع...
يرتقب أن يأمره ﷺ بما شاء...
فيبادر الى التنفيذ وهو أسعد الناس!!!

ومعه... في غزوة الخَنْدَق؟!

«عن نَافِع بن جُبَيْرٍ...
«عن أبي عُبَيْدَةَ قال:
«قال عبدُاللهِ: إنَّ المشركينَ شَغَلُوا النبيَّ ﷺ عن أرْبَعِ صَلَوَاتٍ يوْمَ الخَنْدَق...
«فأمَرَ بلالًا فأذَّنَ...
«ثُمَّ أقامَ...
«فصَلَّى الظُّهْرَ...
«ثُمَّ أقامَ فصَلَّى الْعَصْرَ...
«ثُمَّ أقَامَ فصَلَّى المَغْرِبَ...
«ثُمَّ أقامَ فصَلَّى الْعِشَاءَ».

[أخرجه النَّسائي]

★ ★ ★

اقول: هذا نعيم ما بعده من نعيم!!!
ثم أقام... ثم أقام... ثم أقام... ثم أقام؟!
اربع مرات... يقيم بلال للصلاة... ورسول الله ﷺ... يصلي بعد كل إقامة فريضةً بأصحابه...
ما هذا ؟!!
بحار من الرحمة تتنزل من الله تعالى...
وبحار من النور تتصاعد الى الله تعالى...
وبلال يسبح في تلك الأنوار ويَسعد!!!

لا يَأْخُذُ عَلَى أَذَانِهِ أَجْرًا ؟!

عن عُثمانَ بنِ أبي الْعَاصِ قال:
« قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ... اجْعَلْنِي إمَامَ قوْمي...
« فقالَ: أَنْتَ إمَامُهُمْ...
« وَاقْتَدِ بأَضْعَفَهِمْ...
« واتَّخِذْ مُؤَذِّنًا لا يَأْخُذُ على أذَانِهِ أجْرًا ».

[أخرجه النَّسائي]

« واقتد بأضعفهم » أي فأمّهم واقتدِ بأضعفهم...
والمعنى: كما أن الضعيف يقتدي بصلاتك فاقتد أنت أيضا بضعفه... واسلك له سبيل التخفيف في القيام والقراءة بحيث كأنه يقوم ويركع على ما يريد وأنت كالتابع الذي يركع بركوعه...
« واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجْرا » محمول على الندب عند كثير... وقد أجازوا أخذ الأجرة...

★ ★ ★

اقول: وهكذا جمعت فضائل الأذان كلها لبلال رضي الله عنه...

فهو أوّل مَن أذَّن على الاطلاق...

وهو مؤذن رسول الله ﷺ... بإطباق الأمة كلها على ذلك!!!

وهو المؤذن الذي لا يأخذ على أذانه أجرا... يريد وجه الله تعالى...

وهو صاحب الصوت النديّ في أذانه... فجمع بين الاخلاص في الأذان... وحسن الصوت!!!

وهو المقيم للصلاة بين يدي رسول الله ﷺ!!!

كل أولئك من الفَضائل كان لبلال مجموعا...

ولكن هل كان بلال مجرد مؤذن وانتهى عند ذلك؟!

كلّا... وإنما كان مجاهدا في سبيل الله...

يقاتل في سبيل الله... ويشهد المشاهد كلها... مع رسول الله ﷺ...

فهو شخصية متكاملة... شأنه في ذلك شأن جميع أصحاب رسول الله ﷺ...

ما من فضيلة دعا اليها الله ورسوله... الا تسابقوا اليها سراعا...

ومن هنا كانوا أعظم الناس الى يوم القيامة...

لأنهم استبقوا الخير كله!!!

شخصياتهم جميلة بهيجة رائعة... رهبان بالليل... فرسان بالنهار...

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ...

﴿وَالَّذينَ مَعَهُ...

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ...

﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...

﴿ترَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا . . .
﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوانًا . . .
﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . . .﴾[1] !!!
والذين مَعَهُ ؟!!
وكان بلال رضي الله عنه من الذين مَعَهُ!!!
فانظر : كيف كان يكون ؟!!!

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

بلال . . .
يشهد . . .
فَتح مَكَّة ؟!

أسباب فتح مكة

ثم أقام رسول الله ﷺ بعد بعثه إلى مؤتة جمادى الآخرة ورجبًا.

ثم إن بني بكر عدت على خزاعة.

وقد مضى أنه لما كان صلح الحديبيـة بين رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيما شرطوا له وشرط لهم، أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو بكر من خزاعة، وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأرًا.

واعتدت بنو بكر على خزاعة وقاتلتها، وقاتل من قريش من قاتل مع بني بكر!

ثم خرج نفر من خُزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة.

أبو سفيان في المدينة

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة.

فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه!

فقال: يا بُنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟

قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ!

قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فكلمه فلم يرد عليه شيئًا.

ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل.

ثم أتى عمر بن الخطاب، فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على عَليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها حسن بن علي يدب بين يديها فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبًا، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سفيان!!. والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر، ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

قالت: والله ما بلغ بني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني.

قال: والله ما أعلم لك شيئًا يغني عنك شيئًا، ولكنك سيد بني كنانة، فقم

فأجرْ بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال. أو ترى ذلك مغنيا عني شيئًا؟

قال: لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس، إني قد أجَرْت بين الناس، ثم ركب بعيره، فانطلق.

فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟

قال: جئت محمدًا، فكلمته، فوالله ما رد عليَّ شيئًا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو، ثم أتيت عليا فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئًا أم لا؟

قالوا: وبم أمرك؟.

قال: أمرني أن أجير بين الناس، فقلت.

قالوا: هل أجاز ذلك محمد؟.

قال: لا.

قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت؟

قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

الأمر بالتعبئة

وأمر رسول الله ﷺ بالتعبئة. وأمر أهله أن يجَهِّزُوه.

فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها، وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أي بنية أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه؟

قالت: نعم: فتجَهَّز.

قال: فأين تُرَيْنَهُ يريد؟
قالت: والله ما أدري.
ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة.
وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».
فتجهز الناس...

كتاب إلى قريش

لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش، يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم.
ثم أعطاه امرأة، وجعل لها أجرا، على أن تبلغه قريشًا.
فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به.
وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، بما صنع حاطب.
فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال: «أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم.
فخرجا حتى أدركاها... فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئًا.
فقال لها علي بن أبي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك.
فلما رأت الجد منه قالت: أعرض.
فأعرَضَ، فحلَّتْ قرون رأسها، فاستخرَجَتْ الكتاب منها، فدفعته إليه.
فأتى به رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا، فقال: «يا

حاطب ما حملك على هذا»؟

فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق.

فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطّلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم».

فأنزل الله تعالى في حاطب: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعدوَّكُم أولياءَ تُلقُون إليهم بالمودة﴾[1].

الخروج في رمضان

ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ كلثوم بن حصين.

وخرج لعشر مضين من شهر رمضان من سنة ثمان من الهجرة.

فصام رسول الله ﷺ، وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكدَيْدِ أفطر.

ثم مضى حتى نزل مَرَّ الظهران، في عشرة آلاف من المسلمين.

وخرج مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف منهم أحد.

قصة اسلام العباس بن عبد المطلب

وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق، لقيه بالجحفة مهاجرًا بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيما بمكة على سقايته،

(١) سورة الممتحنة، الآية ١.

ورسول الله ﷺ عنه راض.

وهكذا خرج العباس مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ فوجده في أثناء الطريق، وهوذاهب إلى فتح مكة.

قصة اسلام أبي سفيان

فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران... قال العباس بن عبد المطلب: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة، قبل أن يأتوه فيستأمنوه: إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت: لعلي أجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه، قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال: فوالله إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان، وبُدَيل بن ورقاء وهما يتراجعان.

وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا؟!

فيقول بديل: هذه والله خزاعة، حمستها الحرب.

فيقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة؟

فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟

قلت: نعم.

قال: ما لك فداك أبي وأمي؟

قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله؟

قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟

قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ، فأستأمنه لك.

فركب خلفي ورجع صاحباه.

فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟

فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ، وأنا عليها قالوا: عَمُّ رسول الله ﷺ على بغلته.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: من هذا؟! وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله؟! الحمد لله الذي أمكن منك، بغير عقد ولا عهد.

ثم خرج يشتَدُّ نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة، فسبقته بما يسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء.

فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه، بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه.

قلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ...

فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به».

فذهبت به إلى خيمتي، فبات عندي، فلما أصبح غدَوْت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يئن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله»؟

قال: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!!!. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئًا بعد».

قال: «ويحك يا أبا سفيان!! ألم يئن لكَ أن تعلم أنّي رسول اللهِ»؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!!. أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا.

فقال له العباس: «ويْحكَ أسلِم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك.

فشهد شهادة الحق، فأسلم.

قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئًا.

قال: «نعم.. من دخل دار أبي سفيانَ فهو آمنٌ، ومن أغلَقَ عليه بَابَه فهو آمنٌ، ومن دخل المسجد فهو آمنٌ».

عرض الجيش

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي، عند خَطْم الجبل[1]، حتى تمر به جنود الله فيراها».

قال: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه.

ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟! فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسليم؟

ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة؟

حتى نفذت القبائل، ما تمر قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم قال: ما لي ولبني فلان.

حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء.

---

(١) أنف الجبل، وهو شيء يخرج منه يضيق به الطريق.

وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها.

فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، لا يُرَى منهم إلا الحَدْق من الحديد.

فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟!!

قلت: هذا رسول الله ﷺ، في المهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحد بهؤلاء قبلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما.

قلت: يا أبا سفيان إنها النُّبوَّة.

قال: فنعم إذن.

قلت: السرعة إلى قومك.

هند تأخذ بشاربه!

حتى إذا جاءهم، صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه...

فقالت: اقتلوا الحميت[1] الدسم الأحمس، قبح من طليعة[2] قوم!!

قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم! فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به... فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟!

قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن.

فتفرق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد الحرام.

---

(١) الحميت: زق السمن، والدسم: الكثير الودك، والأحمس: الشديد اللحم ـ تريد تشبيهه به لضخامته وسمنه.

(٢) طليعة القوم. الذي يتقدمهم، أو يحرسهم.

التواضع لله

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طَوًى، وقف على راحلته متعمما، بنصف بردة حمراء، وإن رسول الله ﷺ، ليضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح.

حتى إن عثْنونَه[1] ليكاد يَمسُّ واسطة الرَّحْلِ!

عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعًا.

ترتيب الجيش

وقالوا إن رسول الله ﷺ، حين فرَّق جيشه من ذي طوى، أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدًى، وكان الزبير على المجنِّبَة اليسرى.

وأمر سعد بن عُبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء.

وقالوا إن سعدا ـ حين وجه داخلا ـ قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله، اسمعْ ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن تكون له في قريش صَوْلة.

فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «أدْرِكْهُ فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخُل بها».

وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فدخل من أسفل مكة في بعض الناس.

وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين، يَنْصَبُّ لمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

---

(١) ذقنه.

ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر، حتى نزل بأعلى مكة وضربَتْ له هناك قُبَّتُهُ.

وناوش نفر قليل من المشركين، وناوشهم خالد بن الوليد.

وأصيب من المشركين ناسٌ قريبٌ من اثني عشر رجلا، ثم انهزموا.

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين، حين أمرهم أن يدخلوا مكة، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم. إلا أنه قد عهد في نفر سماهم، أمر بقتلهم وإن وُجدُوا تحت أستار الكعبة.

خطبته يوم فتح مكة

لما نزل رسول الله ﷺ مكة، واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته، فلما قضى طوافه وقف على باب الكعبة، وقد اجتمع له الناس في المسجد، فقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرةٍ أو دم أو مال يُدَّعى، فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدَانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شِبْهِ العمد بالسَّوْط والعصا ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

«يا معشر قريش، وإن الله قد أذهب عنكم نَخْوَةَ الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب.

ثم تلا هذه الآية: ﴿يا أيها الناسُ إنَّا خَلَقْناكم مِنْ ذكرٍ وأنثى﴾[1] الآية كلها.

ثم قال: «يا معشر قريشٍ، ما تَروْنَ أنّي فاعلٌ فيكم»؟

قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال: «اذهبوا، فأنتم الطلقاء».

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

هاك مفتاحك يا عثمان!

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد.

فقام إليه علي بن أبي طالب، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك؟

فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟»

فدعي له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء».

كيف كان البيت؟

رووا أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم.

فرأى إبراهيم عليه السلام، مُصوَّرا، في يده الأزلام، يستقسم بها!

فقال: قاتَلَهُم الله، جعلوا شيخَنا يستقسم بالأزلام؟ ما شأنُ إبراهيم والأزلام؟ ﴿ما كان إبراهيمُ يهوديًا ولا نصرانيًا ولكنْ كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين﴾[1].

ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.

جاء الحق وزهق الباطل

وعن ابن مسعود قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾[2] ﴿جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾[3]. (البخاري)

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨١.

(٣) سورة سبأ، الآية ٤٩.

وفي رواية مسلم قال: دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح مكة، وعلى الكعبة ثلثمائة صنم فأخذ قضيبه، فجعل يهوي إلى الصنم، وهو يهوي، حتى مر عليها كلها.

وهكذا طهر رسول الله ﷺ البيت من تلك النجاسات، وتلك الخرافات التي جعلتها قريش وغيرها ببيت الله الحرام.

إن الله حرَّم مكة

فلما كان من الغد يوم الفتح، اعتدت خُزاعةُ على رجل من هُذَيْل، فقتلوه وهو مشرك.

فقام رسول الله ﷺ خطيبًا فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرَّمَ مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرامٌ من حرامٍ إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد[1] فيها شجرًا، لم تُحلَلْ لأحد كان قبلي، ولا تحلُّ لأحدٍ يكون بعدي، ولم تحلَلْ لي إلا هذه الساعة، غضبًا على أهلها، ألا ثُمَّ قد رجعت كحُرْمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهِدُ منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله ﷺ قاتل فيها، فقولوا إن الله قد أحلَّها لرسوله، ولم يُحلِلْها لكم، يا معشرَ خزاعَة ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل...».

ماذا قلتم؟

ثم إن النبي ﷺ - حين افتتح مكة ودخلها - قام على الصفا يدعو الله، وقد أحدقت به الأنصار.

فقالوا فيما بينهم: أترون أن رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه

(١) يعضد: يقطع.

وبلده، يقيم بها؟

فلما فرغ من دعائه قال: «ماذا قلتم؟»

قالوا: لا شيء يا رسول الله.

فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال النبي ﷺ «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

انتهاء المعركة

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة.

كان فتح مكة لعشر ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

ولَمَّا جاء وقت الظهر...

يوم فتح مكة...

أمَرَ رسولُ الله ﷺ...

بلالًا أن يؤذِّن...

على ظهر الكعبة...؟!!

اين كان بلال يوم فتح مكة... يوم النصر العظيم... والفتح المبين؟!

قال ابن الأثير:

«ولما دخل رسول الله... ﷺ... مكة كانت عليه عمامة سوداء...

فوقف على باب الكعبة وقال: لا إله إلّا اللهُ وحده... صدق وعده... ونصر عبده... وهزم الأحزاب وحده...

«ألَا كلّ دم أو مأثرة أو مال يُدّعى فهو تحت قدميّ هاتين...

«إلا سدانة البيت وسقاية الحجّ...

«ثم قال: يا معشر قريش... ما ترون أنّي فاعل بكم؟...

«قالوا: خيرًا... أخ كريم... وابن أخٍ كريم...

«قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء...

«فعفا عنهم... وكان الله قد أمكنه منهم... وكانوا له فيئًا... فلذلك سمي أهل مكّة الطلقاء...

«وطاف بالكعبة سبعًا...

«ودخلها وصلّى فيها...

«ورأى فيها صور الأنبياء... فأمر بها فمُحيت...

«وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا...

« وكان بيده قضيب... فكان يشير به إلى الأصنام وهو يقرأ:
﴿وقُلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زهُوقًا﴾[1]...
« فلا يشير إلى صنم منها إلّا سقط لوجهه...
« ثم جلس رسول الله ﷺ للبيعة على الصفا...
« وعمر بن الخطّاب تحته...
« واجتمع الناس لبيعة رسول الله ﷺ...
« فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا...
« فكانت هذه بيعة الرجال...
« وأمّا بيعة النساء فإنّه لما فرغ من الرجال بايع النساء...
« ... فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهنّ...
« واستغفَرَ لهنّ رسول الله ﷺ...
« وكان رسول الله ﷺ... لا يمسّ النساء ولا يصافح امرأة... ولا تمسّه امرأة إلا امرأة أحلها الله له... أو ذات محرم منه...

بلال يؤذّن على ظهر الكعبة؟!

« ولما جاء وقت الظهر...
« أمر رسول الله ﷺ... بلالًا...
« أن يؤذّن على ظهر الكعبة...
« وقريش فوق الجبال...
« فمنهم مَن يطلب الأمان...
« ومنهم من قد أمن...

(١) سورة الإسراء، الآية ٨١.

« فلمّا أذّن وقال: أشهد أنّ محمدا رسول الله...

« قالت جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبى حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة!!!

« وقيل: إنّها قالت: لقد رفع الله ذكر محمّد...

« وأمّا نحن فسنصلّي ولكنّا لا نحبّ مَن قتل الأحبّة...

« وقال خالد بن أسد... أخو عثمان بن أسد: لقد أكرم الله أبي فلم يَر هذا اليوم!...

« وقال الحارث بن هشام: ليتني متّ قبل هذا اليوم!...

« وقال جماعة نحو هذا القول!...

« ثم أسلموا وحسن إسلامهم ورضي الله عنهم...»

★ ★ ★

اقول: ودَوّى صوت بلال فوق ظهر الكعبة... يؤذن لصلاة الظهر...

كما أمره رسول الله ﷺ...

وكانت لحظة تغير فيها مسار البشرية الى يوم القيامة!!!

لحظة النصر العظيم... والفتح المبين!!!

وجعل بلالٌ ينادي بأعلى صوته لأوّل مرة... من فوق الكعبة... من المسجد الحرام... في مكة المكرمة!!!

كانت لحظة تاريخية عظمى... ارتفع فيها صوت الحقّ... منتصرا لأول مرة نصرا ساحقًا ماحقًا... لا قيام للكفر بعده أبدا!!!

ودَوّى صــوت بلال... في انحاء المسجــد الحرام... وفي فجــاج مكة... لأوّل مرة!!!

مشهد عظيم... تحقَّق فيه أمر عظيم...
أعلنه رسول الله ﷺ...
حين وقف على باب الكعبة وقال: لا إله إلا اللهُ وحده!!!
صدق وعده!!!
ونصر عبده!!!
وهزم الأحزاب وحده!!!

رسول الله...

ﷺ...

دخل الكعبة...

ومعه بلال...

يوم فتح مكة...؟!

وفازَ بلال بمكرمة أخرى!!!

وكان ذلك يوم فتح مكة...

فكيف كان ذلك؟!

أبَى أن يدخُل البيتَ
وفيه الآلهة؟!

عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما...

«أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لما قَدِمَ مَكَّةَ أَبَى أن يَدْخُلَ البَيْتَ وفيهِ الآلهةُ...

«فأمَرَ بهَا فأُخرِجَتْ...

«فأُخْرِجَتْ صُورَةُ إبراهِيمَ وإسماعيلَ في أيديهما مِنَ الأزْلامِ.

«فقال النبي ﷺ: قاتَلَهُمُ اللهُ... لَقَدْ عَلِمُوا ما اسْتَقْسَمَا بها قَط...

«ثمّ دخَلَ البَيْتَ فكَبَّرَ في نَواحِي البيْتِ وخرَجَ ولَمْ يُصَلِّ فيهِ».

[أخرجه البخاري]

«لمَّا قدم مكة» قدومه هذا كان في سنة الفتح...

«أبى» أي امتنع.
«الآلهة» أي الأصنام التي سماها المشركون بالآلهة...
«فأمَرَ بها فأُخرجت» فإن قلت من كان الذي أخرجها؟...
(قلت): روى ابو داود من حديث جابر أن النبي ﷺ أمر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها... فلم يدخلها حتى نحيت الصور... وكان عمر هو الذي أخرجها... قيل إنه محا ما كان من الصور مدهونا وأخرج ما كان مخروطا...

«الأزلام» جمع زلم... وهي السهام التي كانوا يستقسمون بها الخير والشر... وتسمى القداح... المكتوب عليها الأمر والنهي... افعل ولا تفعل.. كان الرجل منهم يضعها في وعاء له واذا أراد سفرا أو زواجا أوْ أمرًا مهما أدخل يده فأخرج منها زلما... فان خرج الأمر مضى لشأنه... وان خرج النهي كف عنه ولم يفعله!!!

«ولم يستقسما بها» اي ما استقسم ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالأزلام قط... وهو من الاستقسام وهو طلب القسم الذي قسم له وقدّر...

قال ابن الأثير:

كان على بعضها مكتوب أمرني ربي... وعلى الآخر نهاني ربي... وعلى الآخر غفل... فان خرج امرني ربي مضى لشأنه... وإن خرج نهاني أمسك... وان خرج الغفل اعاد حالها وضرب بها أخرى الى ان يخرج الأمر أو النهي...

«ولم يُصَلِّ فيه» اي في البيت... وفي الحديث الذي يأتي صَلَّى فيه... وقد علم ان رواية المثبت مقدمة على رواية النافي

دَخَلَ رسولُ الله...
ﷺ... الكعبة...
ومعه أُسامَةُ بنُ زَيْد...
وبلالٌ... وعُثمانُ بنُ طَلْحَةَ؟!

«عن عبدِالله بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما...
«أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أقبَلَ يومَ الفتحِ مِن أعْلى مكةَ... على راحلَتِهِ مُرْدِفًا أُسامَةَ بنَ زَيْدٍ...
«ومَعَهُ بِلاَلٌ...
«ومَعَهُ عُثمانُ بنُ طَلْحَةَ مِنَ الحجَبَةِ...
«حتَّى أناخَ في المسْجِدِ...
«فأمَرَهُ أن يَأْتِيَ بِمِفتاحِ البَيْتِ...
«فَدَخَلَ رسولُ ﷺ...
«ومَعَهُ أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ...
«وبِلاَلٌ...
«وعُثْمانُ بنُ طَلْحَةَ...
«فمَكَثَ فيهِ نَهارًا طَوِيلًا... ثُمَّ خَرَجَ...
«فاسْتَبَقَ النَّاسُ...
«فكانَ عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ أوَّلَ مَنْ دَخَلَ...
«فوَجَدَ بِلَالًا وراءَ الباب قائمًا...
«فسألَهُ: أيْنَ صَلَّى رسولُ اللهِ ﷺ؟...
«فأشارَ إلَى المكانِ الَّذِي صَلَّى فيهِ...
«قَال عبدُاللهِ: فنَسِيتُ أنْ أسْأَلَهُ: كَمْ صَلَّى مِنْ سَجْدَةٍ؟.»

[أخرجه البخاري]

« من الحجبة » جمع حاجب...
« من سجدة » من ركعة...

بلالٌ أحَد ثلاثة دخلوا الكعبة... مع رسول الله ﷺ ؟!

« عن سَالِمٍ عنْ أبيهِ أنَّهُ قالَ:
« دَخَلَ رسولَ اللهِ ﷺ البَيْت...
« هُوَ... وأُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ... وبِلَالٌ... وعُثْمانُ بنُ طَلْحَةَ...
« فأغْلَقُوا عَلَيْهم...
« فلمَّا فَتَحُوا كنتُ أوَّل من ولَجَ...
« فلَقِيتُ بلالًا فسأَلْتُهُ:
« هَلْ صَلَّى فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ ؟...
« قالَ: نَعَمْ... بَيْنَ العَمُودَيْنِ اليَمَانِيَيْنِ. »

[أخرجه البخاري]

« دخل رسول الله ﷺ البيت » أي الكعبة... وكان ذلك في عام الفتح...

وفي رواية « وقال لعثمان ائتنا بالمفتاح... فجاءه بالمفتاح ففتح له الباب فدخل »... وعثمان المذكور هو عثمان بن طلحة... ويقال له الحجبي... ولآل بيته الحجبة لحجبهم الكعبة...

« هو وأسامة » الضمير يرجع الى النبي ﷺ... ذكر هؤلاء الثلاثة أنهم دخلوا البيت مع النبي ﷺ... وفي رواية مسلم من طريق آخر... ولم يدخلها معهم أحد...

« فأغلقوا عليهم » أي الباب...

«فمكث نهارا طويلا» وفي رواية زمانًا... وفي رواية فأطال... وفي رواية مسلم فمكث فيها مليًّا... وفي رواية فمكث فيها ساعة...

«فلقيت بلالا فسألته» وفي رواية: فسألت بلالا رضي الله تعالى عنه حين خرج: ما صنع النبي ﷺ ... وفي رواية: فسألت بلالا: أين صلَّى؟...

وفي رواية عن ابن عمر: فقلت: أصلَّى النبي ﷺ في الكعبة؟... قال: نعم.

فظهر أنه استثبت أولا هل صلى أم لا؟... ثم سأل عن موضع صلاته من البيت...

ومما يرجح به إثبات صلاته صلى الله تعالى عليه وسلم في البيت على من نفاها...

كثرة الرواة لها...

فالذين أثبتوها... بلال... وعمر بن الخطاب... وعثمان بن طلحة... وشيبة بن عثمان...

والذين نفوها أسامة... والفضل بن عباس... وعبدالله بن العباس... أما الفضل فليس في الصحيح انه دخل معهم...

وأما ابن عباس فإنه أخبر عن أخيه الفضل ولم يدخل مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم البيت...

ومن الأجوبة أن القاعدة تقديم المثبت على النافي...

«بين العمودين اليمانيين» وكان البيت على ستة أعمدة شطرين... صلى بين العمودين من الشطر المقدم... وجعل باب البيت خلف ظهره...

ما يستفاد منه: ـ

فيه مشروعية دخول البيت (الكعبة) بدليل دخوله ﷺ ومن معه... ومشروعية الصلاة فيه...

وفي شرح المهذب: يستحب دخول الكعبة والصلاة فيها... وأقل ما يصلى

ركعتين... زاد في المناسك حافيًا...

ويستحب للداخل ان لا يرفع بصره الى السقف.

(قلت) اي الشارح ـ: الصلاة في الكعبة جائزة فرضها ونفلها... وهو قول عامة أهل العلم... وبه قال الشافعي...

وقال مالك: لا يصلى في البيت والحِجْر فريضة والا ركعتا الطواف والواجبتان ولا الوتر ولا ركعتا الفجر... وغير ذلك لا بأس به...

وقيل: ويصلي أي الداخل في البيت يصلي في أي ناحية شاء من نواحي البيت... وكل ناحية من نواحي البيت من داخله سواء... كما أن كل نواحيه من خارجه في الصلاة اليه سواء.

★ ★ ★

أقول:

وكان مشهدا عظيمًا!!!

رسول الله... ﷺ... يدخل الكعبة... يوم فتح مكة!!!

ومعه... أسامة بنُ زيد!!!

وبلالٌ!!!

وعثمان بن طلحة!!!

ثم ماذا؟!

فأغلقوا عليهم!!!

ثم ماذا؟!

فمكث فيه نهارًا طويلًا!!!

مشهد جميل جليل!!!

رسول الله ﷺ... داخل الكعبة وقتا طويلًا!!!

وباب الكعبة مغلق عليهم!!!

ومعه أسامة... وبلال... وعثمان بن طلحة!!!

ماذا كان من رسول الله ﷺ في ذلك الزمان؟!

الجواب: رسول الله... داخل بيت الله... داخل الكعبة...

فافْهَم!!!

ثم ماذا كان من أسامة؟!!

ثم ماذا كان من بلال؟!

ثم ماذا كان من عثمان بن طلحة؟!

الله أعلم ورسوله...

ولكن السؤال الذي يلح علينا ها هنا: كم ارتفع بلال عند ربه... وهو في صحبة رسول الله ﷺ... داخل الكعبة... البيت الحرام؟!!!

بلال...
يشهد مُعجزة...
لرسول الله ﷺ ؟!

قال ابن هشام:

وحدثني أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة... ومعه بلال..

« ثم خرج رسول الله ﷺ...

« وتخلّف بلال..

« فدخل عبدالله بن عمر على بلال... فسأله:

« أين صلّى رسول الله ﷺ ؟...

« ولم يسأله: كم صلى؟...

« فكان ابن عمر إذا دخل البيت مشى قِبَل وجهه... وجعلَ الباب قِبَل ظهره... حتى يكون بينه وبين الجدار قَدْر ثلاثة أذرع... ثم يصلي...

« يتوخَّى[1] بذلك الموضع الذي قال له بلال.»

معجزة لرسول الله ﷺ ؟!

قال ابن هشام:

وحدثني: أن رسول الله ﷺ... دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال...

---

(١) يتوخَّى: يتحرى... يقصد.

« فأمره أن يؤذّن...

« وأبو سُفيان بن حَرب... وعتَّاب بن أسيد... والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة...

« فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا... فيسمع منه ما يغيظه...

« فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحِقّ لاتَّبعتـه...

« فقال أبو سُفيان: لا أقول شيئًا... لو تكلَّمتُ لأخبرَتْ عني هذه الحصَى!...

« فخرج عليهم النبيّ ﷺ...

« فقال: قد علمتُ الذي قلتم...

« ثم ذكر ذلك لهم!!!

« فقال الحارث وعتَّاب: نَشْهد أنَّك رسول الله... والله ما اطَّلع على هذا أحَدٌ كانَ معنا... فنقول أخْبرك.»!!!

ثُمَّ أمَرَ بلالًا
أن يَدْفَعَ إليه...
اللواء...؟!

متى أمر رسول الله ﷺ... بلالا أن يدفع اللواء إلى عبد الرحمن بن عوف؟! اليك القصة:::

غزوة عبد الرحمن بن عوف الى دُومة الجندل؟!

قـال ابن إسحاق:

حـدثني من لا أتهم عن عَطاء بن أبي رباح، قال:

سمعت رجلا من أهل البصرة يسأل عبدَالله بن عمر بن الخطاب... عن إرسال العِمامة من خلف الرجل إذا اعْتَمّ...

قال: فقال عبدالله: سأخبرك إن شاء الله عن ذلك بعلم:

كنت عاشرَ عشرة رهط من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجده: أبو بكـر، وعمـر، وعثمان، وعليّ، وعبـد الرحمن بـن عـوف، وابـن مسعود، ومُعاذ بن جبل، وحُذيفة بن اليمان، وأبو سعيد الخُدْري... وأنا... مع رسول الله ﷺ... إذ أقبل فتى من الأنصار... فسلَّم على رسول الله ﷺ... ثم جلس...

فقال: يا رسول الله... صلى الله عليك: أيّ المؤمنين أفضل؟...

« فقال: أحسنهم خُلُقا...

«قال: فأيّ المؤمنين أكْيَس؟...

«قال: أكثرهم ذكرًا للموت... وأحسنهم استعدادا له قبل أن ينزل به... أولئك الأكياس...

ثم سكت الفتى...

وأقبل علينا رسول الله ﷺ فقال:

«يا معشر المهاجرين... خمسُ خصال إذا نزلن بكم... وأعوذ بالله أن تُدركوهن...

«إنه لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يُعلِنوا[1] بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع... التي لم تكن في أسلافهم الذين مَضَوا...

«ولم يَنْقُصُوا المكيال والميزان إلا أُخِذوا بالسنين[2] وشدّة المؤْنة وجَوْر السلطان...

«ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم إلا مُنعوا القَطر من السماء... فلولا البهائم ما مُطروا...

«وما نقضوا عهد الله وعَهد رسوله إلا سُلِّط عليهم عدوّ من غيرهم... فأخذ بعضَ ما كان في أيديهم...

«وما لم يَحْكُم أئمتهم بكتاب الله... وتجبروا[3] فيما أنزل الله... إلا جعل الله بأسَهم بينهم»

ثم أمَرَ بلالا أن يدفع اليه اللواء؟!

ثم أمَرَ عبد الرحمن بن عوف أن يتجهَّز لسرية بعثه عليها...

---

(١) يعلنوا بها: يجاهروا بها.

(٢) بالسنين: الجدب.

(٣) وتجبروا: تعاظموا من أن يحكموا بما أنزل الله.

فأصبح وقد اعتمّ بعمامة من كرابيس[1] سوداء...
فأدناه رسول الله ﷺ منه... ثم نقضها... ثم عمّمه بها...
وأرسل من خلفه أربعَ أصابع أو نحوا من ذلك...
ثم قال: هكذا يا ابن عوف فاعتمّ... فإنه أحسن وأعرف...
ثم أمَرَ بلالًا أن يدفع اليهِ اللواء... فدفعه إليه...
فحمِد الله تعالى... وصلى على نفسه... ثم قال:
«خذه يا بن عوف...
«اغزُوا جميعا في سبيل الله...
«فقاتِلوا من كَفَر بالله...
«لا تَغُلّوا[2]...
«ولا تغدروا...
«ولا تُمثّلوا...
«ولا تَقتُلُوا وَليدا...
«فهذا عهدُ الله وسيرة نبيه فيكم»...
فأخذ عبد الرحمن بن عوف اللواء.
قال ابن هشام: فخرج إلى دُومة الجندل.

* * *

أقول: وهكذا كان يشهد بلال المشاهـد كلها!!!

---

(١) الكرابيس: جمع كرباس وهو القطن.
(٢) لا تغلوا: لا تخونوا في المغانم.

بل . . .

الرَّفيق

الأعلى . . . ؟!

نحن في سنة إحدى عشرة من الهجرة.

فبينا الناس على ذلك، ابتـدئ رسول الله ﷺ بشكواه، الذي قبضه الله فيه، في ليال بقين من صفر.

فكان أول ما ابتـدئ به من ذلك، أنه خرج إلى بقيع الغَرْقد، من جوف الليل، فاستغفر لهم ثم رجع إلى أهله.

فلما أصبح ابْتُـدئ بوجعه من يومه ذلك.

لقد اخترت لقاء ربي

عن أبي مُوَيْهِبَةَ مولى رسول الله ﷺ، قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي».

فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، لِيَهْنِئْ لكم ما أصبحتم فيه، مما أصبح الناسُ فيه، أقبلت الفتَنُ كقطع الليْل المظلم، يتبع آخِرُها أوَّلَهَا، الآخِرَةُ شَرٌّ من الأولى».

ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة».

فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة قال: «لا، والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة».

ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف.

فبدأ رسول الله ﷺ مرضه الذي قبضه الله فيه.

وارأساه

عن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صُداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: «بل أنا والله يا عائشةُ وارأساه».

قالت: ثم قال: «وما ضرك لو مُتِّ قبلي، فقمتُ عليك وكفّنْتكِ وصليت عليك ودفنتك؟».

قالت: قلت: والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعْرَست فيه ببعض نسائك!.

فتبسم رسول الله ﷺ.

وتتامَّ عليه مرضه وهو يدور على نسائه، حتى اشتد به وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيتي، فأذِنَّ له.

المرض يشتد

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن عباس، ورجل آخر(١)، عاصبًا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيتي.

---

(١) هو علي بن أبي طالب.

ثم غُمِرَ رسول الله ﷺ، واشتد به وجعه، فقال: «هَرِيقُوا عَلَيَّ سبع قِربٍ من آبار شتى، حتى أخرُجَ إلى الناس، فأَعْهَدَ إليهم».

فأقعدناه في مِخْضَبٍ لحفصة بنت عمر، ثم صببنا الماء حتى طفق يقول: «حَسْبُكم حسبكم».

ينعي نفسه

وخرج رسول الله ﷺ عاصبًا رأسه، حتى جلس على المنبر.

ثم كان أول ما تكلم به، أنه صلى على أصحاب أُحُدٍ، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم.

ثم قال: «إن عبدًا من عباد الله، خيره الله بين الدنيا والآخرة، وبين ما عنده، فاختار ما عند الله».

ففهمها أبو بكر، وعرف أن نفسه يريد، فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا.

فقال رسول الله ﷺ: «على رسلك يا أبا بكر».

ثم قال: «انظروا هذه الأبواب اللافظة[1] في المسجد فسدوها، إلا بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحدًا، كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه».

ويروى أن رسول الله ﷺ قال يومئذ في كلامه هذا «فإني لو كنت متخذًا من العباد خليلا، لاتخذتُ أبا بكر خليلا، ولكن صحبةٌ، وإخاءُ إيمانٍ، حتى يجمع الله بيننا عنده».

---

(١) اللافظة: النافذة إليه.

أنفذوا بعث أسامة

ثم إن رسول الله ﷺ استبطأ الناس في بعث أسامة، وهو في مرضه.

فخرج عاصبًا رأسه، حتى جلس على المنبر.

وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة: أَمَّر غلامًا حدثًا، على جلة المهاجرين والأنصار.

فحمد الله، وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «يا أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليقٌ للإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها».

ثم نزل رسول الله ﷺ، وانكمش الناس في جهازهم، واشتد برسول الله ﷺ مرضه.

فخرج أسامة، وخرج بجيشه معه، حتى نزلوا الجُرْف من المدينة على فرسخ.

فضرب به معسكره، وتتامَّ إليه الناس.

وثقل رسول الله ﷺ، فأقام أسامة والناس، لينظروا ما الله قاض في رسول الله ﷺ.

استوصوا بالأنصار خيرًا

وروي أن رسول الله ﷺ قال - يوم صلى واستغفر لأصحاب أحد، وذكر من أمرهم ما ذكر، مع مقالته يومئذ - «يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيرًا، فإن الناس يزيدون، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عَيْبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

ثم نزل رسول الله ﷺ، فدخل بيته، وتتامَّ به مرضه حتى غمره.

من صنع هذا بي؟

فاجتمع إليه نساء من نسائه، أم سلمة، وميمونة، ونساء من نساء المسلمين، منهن أسماء بنت عُمَيْس.

وعنده العباس عمه، فأجمعوا على أن يَلُدُّوه[1]، وقال العباس: لألُدَّنَّه.

فلدُّوه، فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: «من صنع هذا بي»؟

قالوا: يا رسول الله عمك.

قال: هذا دواءٌ أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض». وأشار نحو أرض الحبشة.

قال: «ولم فعلتم ذلك»؟

فقال عمه العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات جَنْب.

فقال: «إن ذلك لداءٌ ما كان الله ليقذفَني به، لا يبقَ في البيت أحد إلا لُدَّ إلا عمي».

فلقد لدت ميمونة، وإنها لصائمة، لقسم رسول الله ﷺ، عقوبة لهم بما صنعوا به.

يدعو بالإشارة

عن أسامة بن زيد، لما ثَقُل رسول الله ﷺ، هبطت، وهبط الناس معي إلى المدينة.

فدخلت على رسول الله ﷺ، وقد أُصْمِت، فلا يتكلم.

فجعل يرفع يده إلى السماء، ثم يضعها عليّ، فأعرف أنه يدعو لي.

---

(١) لددت المريض: إذا جعلت الدواء في شق فمه.

إذًا والله لا يختارنا!

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ، كثيرًا ما أسمعه يقول: «إن الله لم يقبض نبيًا حتى يُخيِّرَهُ».

قالت: فلما حُضر رسول الله ﷺ، كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول: «بل الرفيقَ الأعلى من الجنَّة».

قالت: قلت: إذا والله لا يختارنا، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا «إن نبيًا لم يُقبضْ حتى يُخيَّر».

وعن عائشة أيضًا قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي إلا تُقبض نفسه، ثم يرى الثواب، ثم ترد إليه، فيخير بين أن ترد إليه، وبين أن يلحق».

فكنت قد حفظت ذلك منه، فإني لمسندته إلى صدري، فنظرت إليه حين مالت عنقه، قد قضى، فعرفت الذي قال.

فنظرت إليه حين ارتفع فنظر، قلت: إذا والله لا يختارنا.

فقال: مع الرفيق الأعلى، في الجنة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

مروا أبا بكر فليصل بالناس

عن عائشة قالت: لما استعزَّ برسول الله ﷺ قال: «مروا أبا بكر فليُصَلِّ بالناس».

قلت: يا نبي الله، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن؟

قال: «مروه فليصل بالناس».

قالت: فعدت بمثل قولي.

فقال: «إنكنَّ صواحبُ يوسفَ، فمروه فليصل بالناس».

قالت: فوالله ما أقول إلا أني كنت أحب أن يُصرَف ذلك عن أبي بكر. وعرفت أن الناس لا يحبُّون رجلا قام مقامه أبدًا، وان الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان، فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر.

فأين أبو بكر؟

عن عبدالله بن زَمْعة قال: لما استعز برسول الله ﷺ -وأنا عنده في نفر من المسلمين- دعاه بلال إلى الصلاة.

فقال: «مروا من يصلي بالناس».

فخرجت، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبًا.

فقلت: قم يا عمر فصل بالناس.

فقام: فلما كبر، سمع رسول الله ﷺ صوته وكان عمر رجلا مُجْهِرًا[1].

فقال رسول الله ﷺ: «فأيْن أبو بكر؟. يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون».

فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس.

قال لي عمر: ويْحك!!. ماذا صنعتَ بي يا ابن زمعة؟. والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك؟. ولولا ذلك ما صليت بالناس.

قلت: والله ما أمرني رسول الله ﷺ بذلك، ولكني حين لم أرَ أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

---

(١) مجهرًا: عالي الصوت.

النظرة الأخيرة

عن أنس بن مالك: لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله ﷺ، فخرج إلى الناس وهم يصلون الصبح.

فرفع الستر، وفتح الباب، فخرج رسول الله ﷺ، فقام على باب عائشة.

فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه، فرحًا به، وتفرَّجوا.

فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم.

وتبسم رسول الله ﷺ سرورًا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم

وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئةً منه تلك الساعة.

ثم رجع، وانصرف الناس، يرون أن رسول الله ﷺ قد أفْرقَ(١)، من وجعه، فرجع أبـو بكر إلى أهله بالسُّنحْ(٢).

يصلي عن يمين أبي بكر!!

لما كان يوم الاثنين، خرج رسول الله ﷺ، عاصبًا رأسه إلى الصبح، وأبو بكر يصلي بالناس.

فلما خرج رسول الله ﷺ تفرج الناس، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ﷺ فنكص عن مصلاه.

فدفع رسول الله في ظهره، وقال: «صَلِّ بالناس».

وجلس رسول الله ﷺ إلى جَنبه، فصلى قاعدًا عن يمين أبي بكر(٣).

---

(١) أفرق من وجعه: أبل من مرضه وبـرئ منه.

(٢) موضع كان لأبي بكر فيه مال، وكان ينزله بأهله.

(٣) قـال الإمـام العيني في شرحـه على صحيـح البخـاري: قـال البيهقـي: «لا تعـارض في=

فلما فرغ من الصلاة، أقبل على الناس، فكلمهم رافعًا صوته، حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: «أيها الناس، سُعِّرتِ النارُ، وأقبلتِ الفتن كقِطع الليل المظلم، وإنه والله ما تمسَّكون عليّ بشيء، إني لم أُحِلَّ إلا ما أحَلَّ القرآنُ، ولم أحَرمْ إلا ما حرم القرآنُ».

فلما فرغ رسول الله ﷺ من كلامه، قال له أبو بكر: يا نبي الله، إني أراك قد أصبَحْت بنعمة من الله وفضل، كما نُحب، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها؟.

قال: «نعم».

ثم دخل رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح.

بل الرفيق الأعلى

فَتوُفّي رسول الله ﷺ حين اشتد الضُّحاء من يوم الإثنين، لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، لتمام عشر سنين من مقدمه المدينة.

عن عائشة قالت: رجع إليّ رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجري.

فدخل عليَّ رجل من آل أبي بكر، وفي يده سواك أخضر.

فنظر رسول الله ﷺ إليه في يده، نظرًا عرفت أنه يريده.

فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟.

قال: «نعم».

قالت: فأخذته فمضغته حتى لَيَّنْتُه، ثم أعطيته إياه.

= الأحاديث... فإن الصلاة التي كان فيها النبي ﷺ إمامًا هي صلاة الظهر يوم السبت أو يوم الأحد. والتي كان فيها مأمومًا هي صلاة الصبح من يوم الاثنين.... وهي آخر صلاة صلاها ﷺ حتى خرج من الدنيا.»

فاستَنَّ به كأشد ما رأيته يستن بسواك قطُّ، ثم وضعه.

ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: «بلِ الرفيقَ الأعلى من الجنة».

فقلت: خُيِّرْتَ فاخترتَ، والذي بعثك بالحق.

وقُبض رسول الله ﷺ.

تقول عائشة: مات رسول الله ﷺ بين سَحْري[1] ونَحْري[2] وفي دولتي[3]، لم أظلم فيه أحدًا. فمن سَفَهي وحداثة سني، أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت أَلْتَدِمُ[4] مع النساء، وأضربُ وجهي!

★ ★ ★

أقول: كانت هذه أشق لحظات تمر على بلال في حياته... إنه يشهد أحبّ الخَلْق اليه... في مرضه الذي توفي فيه...

ثم ها هو يشهد وفاة النبي ﷺ...

فكيف الحياة بعد النبي ﷺ؟!!

وماذا هو فاعل بعد الآن؟!

(١) السحر: من الرئة إلى الحلقوم.

(٢) النحر: أعلى الصدر.

(٣) في دولتي: في نوبتي التي كانت لي.

(٤) التدم: أضرب صدري.

بلال...
في خلافة...
أبي بكر...؟!

هل أذَّنَ بلال لأبي بكر... كما كان يؤذّن في حياة النبي ﷺ ؟!

على رأيين... الأوّل: أنه أذَّن لأبي بكر... طيلة خلافته...

قال الإمام العيني في شرحه على صحيح البخاري:

وروى الطبراني في معجمه الأوسط عن أبي محذورة أنه قال:

«ألقى عليّ رسول الله ﷺ الأذان حرفا حرفا الله أكبر الله أكبر» إلى آخره... لم يذكر فيه ترجيعا...

«وأذّنَ بلال بحضرة رسول الله ﷺ سفرا وحضرا... وهو مؤذن رسول الله ﷺ باطباق أهل الإسلام إلى أن توفي رسول الله ﷺ...

«ومؤذن أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى أن توفي...

«من غير ترجيع»[1]

★ ★ ★

أقول: وهذا يؤيد الرأي القائل بأن بلالا أذَّن لأبي بكر حتى آخر خلافته...

---

(١) الترجيع هو أن يرجع بالشهادتين بعد أن خفض بها صوته.

ومما يؤيد كذلك الرأي القائل بأنه أذَّن لأبي بكر... ما جاء بأسْد الغابة في معرفة الصحابة...

« لما توفي رسول الله ﷺ جاء بلال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال:

« يا خليفة رسول الله ﷺ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل أعمال المؤمن الجهاد في سبيل الله» وقد أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت...

« فقال أبو بكر: أنشدك الله يا بلال... وحرمتي وحقي... فقد كبرت واقترب أجلي...

« فأقام بلال مع أبي بكر حتى توفي أبو بكر...» إلى آخره...

والرأي الثاني:

انه لم يؤذن لأبي بكر... ويؤيده ما جاء بأسْد الغابة:

« فلما توفي رسول الله ﷺ أراد أن يخرج إلى الشام...

« فقال له أبو بكر: بل تكون عندي...

« فقال: إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني... وإن كنت أعتقتني لله عز وجل فذرني أذهب إلى الله عز وجل...

« فقال: إذهب...

« فذهب إلى الشام...

« فكان به حتى مات...

« وقيل: إنه أذن لأبي بكر رضي الله عنه بعد النبي ﷺ.»

* * *

أقول: الراجح أن بلالًا أذَّن لأبي بكر حتى وفاته...

فلما كانت خلافة عمر... استأذنه فخرج إلى الشام مجاهدًا...

فما معنى هذا؟!

معناه أن بلالًا شهد الأحداث الكبرى بالمدينة المنورة في أيام أبي بكر حيث كان قائمًا بها ليؤذن لأبي بكر كما كان في عهد رسول الله ﷺ!!!

بلال . . .
في خلافة . . .
عُمر . . . ؟!

في رواية «أسْد الغابة في معرفة الصحابة»:
«فأقام بلال مع أبي بكر حتى توفي أبو بكر...
«فلما توفي جاء بلال إلى عمر رضي الله عنه فقال له كما قال لأبي بكر...
«فردّ عليه كما ردّ أبو بكر...
«فأبى...
«وقيل إنه لما قال له عمر... ليقيم عنده... فأبى عليه: ما يمنعك أن تؤذّن؟!.
«فقال: إنّـي أذّنت لرسول الله ﷺ حتى قُبض...
«ثم أذنت لأبي بكر حتى قُبض... لأنه كان وليّ نعمتي...
«وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال... ليس عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله»...
«فخرج إلى الشام مجاهدًا...
«وإنه أذّن لعمر بن الخطاب لما دخل الشام مرة واحدة...
«فلم يُرَ باكيًا أكثر من ذلك اليوم.»

ثم دخلت سنة ثمان عشرة؟!

في سنة ثماني عشرة أصاب الناسَ مجاعة شديدة وجدب وقحط... فسمي عام الرمادة...

وفيه أيضاً كان طاعون عَمَواس...

وكتبَ عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومَن حولها ويستمدّهم...

طاعون عَمَواس

في هذه السنة كان طاعون عَمَواس بالشام...

فمات فيه أبو عبيدة بن الجرّاح... وهو أمير الناس... ومُعاذ بن جبل... وغيرهم...

وكان عدد من مات في طاعون عَمَواس خمسة وعشرين ألفاً...

قدوم عمر إلى الشام بعد الطاعون؟!

لما هلك النّاس في الطاعون... جمع عمر الناس واستشارهم وقال لهم: قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم...

فسار عن المدينة واستخلف عليها عليّ بن أبي طالب...

فلما قدم الشام قسم الأرزاق... وسمّى الشواتي والصوائف... وسدّ فروج الشام ومسالحها... ورجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة...

لو أمَرْتَ بلالًا فأذَّنَ؟!

ولما كان بالشام وحضرت الصلاة قال له الناس:

«لو أمرتَ بلالًا فأذَّن»؟!

«فأمرَه... فأذَّنَ...

«فما بقي أحد أدرك النبيّ... ﷺ...

«وبلال يؤذّن الّا وبكى...

«وحتى بلّ لحيته!!!

«وعمر أشدّهم بكاء!!!

«وبكى من لم يدركه ببكائهم...

«ولذكرهم رسول الله... ﷺ.»!!!

ومات بلال...

سنة عشرين...

في عهد عُمَر...؟!

قال ابن الأثير:

«وفي هذه السنة... أعني سنة عشرين...

«مات بلال بن رَباح... مؤذّن النبيّ... ﷺ...

«بدمشق... وقيل بحلب...»!!!

★ ★ ★

وقال صاحب «أُسْد الغابة في معرفة الصحابة»:

«توفي بلال بدمشق... ودفن بباب الصغير... سنة عشرين...

«وهو ابن بضع وستين سنةً...

«وقيل: مات سنة سَبع أو ثماني عشرة...

«وقال علي بن عبد الرحمن: مات بلال بحلب... ودفن على باب الأربعين...»!!!

★ ★ ★

أقول: اتفقت الروايتان على أنه مات سنة عشرين هجرية... وعلى هذا يمكن أن نقول إن بلالًا مات سنة عشرين... والله أعلم!!!

شخصية . . .
بلال . . . ؟!

شخصية بلال... بسيطة في مظهرها... عميقة في جوهرها!!!

ما كان بلال مَلِكا... ولا خليفة... ولا قرشيًّا...

ولكن كان حنيفا مسلمًا ولم يك من المشركين...

بل كان قبل ذلك عبدًا مملوكًا... ورقيقا مسكينًا...

يُباع ويشترى... وكانوا فيه من الزاهدين!!!

فما هي أعماق شخصية بلال؟!!

كي نفهم عظمة بلال... ينبغي أن نتذكر شيئًا عن فضائل صحابة رسول الله ﷺ...

حيث أنَّ بلالًا من أوائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم!!!

أَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي؟!

« عن أَبِي بُرْدَةَ عن أبيهِ قالَ:

« صلّيْنا المغربَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ...

« ثمّ قُلْنَا: لوْ جَلَسْنا حتّى نُصَلّي مَعَهُ العِشَاءَ...

« قال: فَجَلَسْنا...

« فخَرَجَ عَلَيْنَا فقالَ:

« ما زِلْتُمْ هَا هُنَا؟...

«قُلْنا: يا رسولَ اللهِ... صَلَّيْنا مَعَكَ المَغْرِبَ... ثمَّ قُلْنا نَجْلِسُ حتَّى نُصَلِّي مَعَكَ العِشَاءَ...

«قالَ: أَحْسَنْتُمْ... أوْ أَصَبْتُمْ...

«قالَ: فرَفَعَ رأْسَهُ إلى السَّمَاءِ وكـان كثيرًا ممَّا يَرْفَعُ رأْسَهُ إلى السماءِ فقالَ:

«النُّجُومُ أَمَنَةٌ للسماءِ...

«فإذَا ذَهَبَتِ النُّجومُ أتَى السماءَ ما تُوعَدُ...

«وأنا أَمَنَةٌ لأَصْحَابي...

«فإذَا ذَهَبْتُ أتَى أصْحابِي ما يُوعَدُونَ...

«وأصْحابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي...

«فإذَا ذَهَبَ أصْحابِي أتَى أُمَّتِي ما يُوعَدُونَ.»

[أخرجه مسلم]

النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد» قال العلماء: الأَمَنَة والأمن والأمان بمعنى...

ومعنى الحديث أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية... فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة... وهنت السماء... فانفطرت وانشقت وذهبت...

«وأنا أمَنَةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون» أي من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب... واختلاف القلوب... ونحو ذلك مما أنذر به صريحا... وقد وقع كل ذلك...

«وأصحابي أمَنَةٌ لأُمَّتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه... وطلوع قرن الشيطان... وظهور الروم وغيرهم عليهم... وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك...

وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

★ ★ ★

أقول: وكان بلال رضي الله عنه من أسبق السابقين من أصحاب رسول الله ﷺ ... فكم يبلغ فضله؟!!

فضل الصحابة؟!

« عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ...
« عن النبيِّ ﷺ قال: « يأتِي على الناسِ زمانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ الناسِ...
« فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى رسولَ اللهِ ﷺ؟...
« فيقولونَ: نَعَمْ...
« فيُفْتَحُ لَهُمْ...
« ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ الناسِ فيُقالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ رسولَ اللهِ ﷺ؟...
فيقولونَ: نَعَمْ...
« فيُفْتَحُ لَهُمْ...
« ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ الناسِ فيُقالُ لَهُمُ: هَلْ فيكُم مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسولَ اللهِ ﷺ؟...
« فيقولونَ: نَعَمْ...
« فيُفْتَحُ لَهُمْ.»

[أخرجه مسلم]

« يغزو فئام من الناس» أي جماعة...
وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ...
وفضل الصحابة... والتابعين... وتابعيهم...

★ ★ ★

أقول: وكان بلال من أسبق السابقين إلى الاسلام... من هؤلاء الأصحاب الأكرمين... فكيف كان؟!!

أيُّ الناسِ خَيْرٌ؟!

«عن عبدالله قالَ:
«سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ: أيُّ الناسِ خَيْرٌ؟...
«قالَ: قَرْنِي...
«ثُمَّ الذينَ يَلونَهُمْ...
«ثُمَّ الذينَ يَلونَهُمْ...
«ثُمَّ يَجيءُ قومٌ تَبْدُرُ شهادَةُ أحَدِهِمْ يَمينَهُ... وتَبْدُرُ يَمينُهُ شهَادَتَهُ...»

[أخرجه مسلم]

اتفق العلماء على أن خير القرون قرنه ﷺ...
والمراد أصحابه...
والصحيح الذي عليه الجمهور أن كل مسلم رأى النبي ﷺ ولو ساعة فهو من أصحابه...
ورواية خير الناس على عمومها والمراد منه جملة القرن بالنسبة إلى كل قرن بجملته...
والصحيح أن قرنه ﷺ الصحابة...
والثاني التابعون...
والثالث تابعوهم...
«ثم يجيء قوم تبدر شهادة أحدهم يمينه وتبدر يمينه شهادته» هذا ذم لمن يشهد ويحلف مع شهادته... واحتج به بعض المالكية في رد شهادة من حلف معها... وجمهور العلماء أنها لا ترد...

أقول: وكان بلال أحد الذين هم خير القرون... فكيف كان؟!

هذا مدخل إلى شخصية بلال... نتبين منه أن بلالا حاز من فضائل الصحابة الذين هم أفضل الناس... أعلاها... والآن هلمّ الى بدائع تلك الشخصية...

بلال العبْد الأسود؟!

كان الناس عند بدء الاسلام فريقين...

أحرارًا لهم كل الحقوق والامتيازات...

وعبيدًا ليس لهم أي حقوق أو أي امتيازات...

وكان بلال من فريق العبيد... وزاده «خسَّة» في نظر السادة آنذاك أنه كان عبدًا أسود... فأضاف لونه إلى مهانته مهانة أخرى!!!

هكذا كان المجرمون يصنِّفُون العبيد... البيض منهم أجدر بالاعتبار من أولئك السود!!!

ولو فكَّر هؤلاء الأغبياء قليلا لأدركوا أن الألوان قسْمة من الله... وليست سببًا لاحترام أو احتقار... ولكن هكذا سَوَّلَتْ لهم أنفسهم... وساءَ ما يحكمون!!!

كان بلال عبدًا أسود مملوكًا... لا وزن له عند سادته... ولا قيمة له على الاطلاق... ولا أمل له في شيء!!!

فهو في سجْن الرِّقّ... يكدح ويكدح... ثم يُلقي إليه سيده بعض الفتات ليقتات!!!

بدنه مملوك لغيره... لا يستطيع الفكاك من سجنه!!!

وكانت مكة تعج بالأصنام والآلهة التي يعبدها السادة... أمّا العبيد فلا حق لهم في عبادة... إلا أن يُعَظِّموا ما عظَّم ساداتهم!!!

ضياع وأيّ ضياع!!!

عـبْد أسود... مملوك لسادة بهائم... بل شر من البهائم... فإن البهائم لا تعبد الحجارة بل تبول عليها إذا رأت أن تبول!!!

وكم بالت الكلاب على الأصنام... وكم وثبت عليها لَعبًا!!!

ظلُمات بعضها فوق بعض... وبلال في أعماقها يهيـم!!!

تبعني عليه... حُر وعبْدٌ ... أبو بكر وبلال؟!

قال ابن الأثير:

«وقيل: أوّل مَن أسلم أبو بكر...

«وقال عمرو بن عَبَسة:

«أتيتُ رسول الله... ﷺ... بعُكاظ...

«فقلتُ: يا رسول الله مَن تبِعَك على هذا الأمر؟...

«قال: تبعني عليه... حُرٌّ وعبدٌ...

«أبو بكر وبلال...

«فأسلمتُ عند ذلك... فلقد رأيتُني رُبع الإسلام... لم يُسلم قبلي إلا النبيّ... وأبو بكر... وبلال...

وقال إبراهيم النَّخعي: أبو بكر أوّل مَن أسلم...»

أقول: هذا الخبر خطير جدًا... في تحليل شخصية بلال...

إنه أوّل عبد مملوك أسلم...

إنه أسلم قبل أي إنسان لم يسبقه إلا أبو بكر...

فما معنى هذا؟!!

معناه أن بلالًا يكاد يتوازى مع أبي بكر في السبق إلى الاسلام...

وإن كان أبو بكر أفضل من بلال لخصائص أخرى...

إلا أنها من حيث السبق إلى الاسلام... يكادان يتوازيان... فلم يكن هناك في تلك اللحظة مسلمًا من الرجال... غير أبي بكر... وبلال!!! ـ على هذه الرواية ـ

تأمَّل قوله ﷺ: «تبعني عليه... حُرٌّ... وعَبْدٌ... أبو بكر... وبلال» !!!

رجلان... اثنان...

أحدهما حُرٌّ... والثاني عَبْدٌ...

هذان هما اللذان... أسِّس عليهما الإسلام!!!

اثنان؟!!

لا بد من طاقة روحية جبارة تتفجَّر من قلب أبي بكر...

ولا بد من طاقة روحية جبارة تتفجَّر من قلب بلال...

ليستطيع كلّ منهما أن يدخل إلى الاسلام...

لأن مخالفة جميع الناس في عقائدهم ليس أمرًا سهلًا...

فكيف ولم يسبقهم أحد من الرجال إلى هذه العقيدة الجديدة التي يدعو اليها هذا النبي؟!!

لا بد من طاقة هائلة هائلة تتفجَّر من قلب كل منهما... تعينه على تحمُّل هذا التغيير الخطير...

نحن الآن نأخذ هذه الأمور ببساطة وبلادة... لأننا لم ندخل تلك التجربة الشاقة... تجربة تغيير عقيدة الانسان وعقيدة آبائه ومجتمعه...

ولكن هي من أشقّ الأمور وأصعبها... أن يغيّر الانسان عقيدته...

وتلك هي القمم التي صعد إليها كل من أبي بكر...، وبلال...

حين أسلما... وتابعا النبي ﷺ على ما يدعوهما اليه!!!

ومن هنا... سبق أبو بكر... الأُمَّة كلها... لأنه كان أسبق الرجال إلى الاسلام...

وسبق بلال... الأمَّة كلها... لأنه كان أسبق العبيد إلى الاسلام... ثم لم يسبقه إلى الاسلام إلا أبو بكر...

إلا أنَّ أبا بكر أسلم وهو حُرٌّ... وهذا يمنعه من أذى قريش بعض الشيء فقد كانوا يهابون إيذاء الأحرار خوفا من قبائلهم التي إليها ينتمون...

لكن بلالا أسلم وهو عبد مملوك... لا حُرمة له... بل هو مستباح حين كان على كفره... فكيف الآن وقد أسلم وتابع محمدا... وجرؤ أن يخالف عقيدة أسياده؟!!!

لا شك أن إسلام بلال... وهو عبد... يحتاج إلى أضعاف الطاقة التي يحتاجها إسلام أبي بكر وهو حُرّ!!!

ومن هنا اختصّ الله بلالا بذلك الفضل العظيم...

فهو أوّل عبد رقيق أسلم...

وهو أوّل رجل أسلم بعد إسلام أبي بكر...

فضلًا عن أنه أوّل من أذَّن في العالم كله إلى يوم القيامة!!!

فسبحان من أعطى!!!

وربما كان عمر يشير إلى ذلك الفضل حين قال:

«أبو بكر سيِّدُنا... وأعتَقَ سيِّدَنا»!!!

ينادي بالتوحيد... وهو يحترق؟!

نحن قوم لا مذاق لنا في حقائق التوحيد...

جئنا فورثنا هذا الدين سهلا مألوفًا للصغار والكبار...

فلا تضحيات ولا تعذيب ولا مطاردة في الأرزاق...

ولكن هؤلاء العظماء... أصحاب رسول الله ﷺ... خاصة السابقين منهم... بذلوا من دمائهم... ومن أرزاقهم... ومن حرياتهم... فتذوقوا بذلك من حقائق الاسلام ما لم نذق... نحن الكسالى... العالة عليهم في ديننا!!!

هذا عظيم من عظماء التوحيد اسمه بلال...

أسلم وهو عبد مملوك... لا حرمة له ولا أحد يحميه...

فهو قد دخل النار بيديه!!!

ولننظر الآن إلى شخصيته العظيمة وهي تحترق... وتنادي أحَدٌ... أحَد!!!

قال ابن الأثير:

تعذيب المستضعفين من المسلمين

«وهم الذين سبقوا إلى الاسلام ولا عشائر لهم تمنعهم... ولا قوة لهم يُمنعون بها...

فأمّا مَن كانت له عشيرة تمنعه فلم يصل الكفّار إليه...

فلما رأوا امتناع مَن له عشيرة وثبتْ كل قبيلة على مَن فيها من مستضعفي المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش... ورمضاء مكة... والنار... ليفتنوهم عن دينهم...

فمنهم من يفتتن من شدّة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان...

ومنهم من يتصلّب في دينه ويعصمه الله منهم...

فمنهم:

بِلال بن ربَاح الحبشيّ...

مولى أبي بكر... وكان أبوه من سبي الحبشة... وأمّه حمامة سبيّة أيضاً... وهو من مولدي السراة... وكنيته أبو عبدالله...

فصار بلال لأميّة بن خلَف الجُمَحيّ...
فكان إذا حميت الشمسُ وقت الظهيرة...
يلقيه في الرمضاء!!!
على وجهه... وظهره!!!
ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة فتُلقى على صدره!!!
ويقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمّد وتعبد اللات والعُزّى!!!

* * *

وها هنا أقول: مِن هنا تذوق بلال حقائق التوحيد...
إنه هو نفسه موضع تجربة من أشقّ تجارب التوحيد...
حين يتسلط المجرمون على دعاة التوحيد قتْلًا وتعذيبًا!!!
وشتان ثم شتان بين صعلوك ورث دينه عن أبيه... فهو يمضي فيه لا يشعر نحوه بحرارة الإيمان...
وبين رجل حَطَّم قاذورات آبائه وأقبل على الاسلام... ثائرًا على كل باطل... مستعدًا لكل تضحية!!!

* * *

ثمّ يقول ابن الأثير:
فكان وَرَقَة بن نوفل يمرّ به وهو يعذَّب وهو يقول: أحَدٌ أحَد...
فيقول: أحَدٌ أحَدٌ والله يا بلال... ثمّ يقول لأميّة: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتَّخذنَّه حنانًا...

فرآه أبو بكر يُعذَّب فقال لأميّة بن خلف: ألا تتّقي الله في هذا المسكين؟!...

فقال: أنت أفسدتَه فأبعدتَه...

فقال: عندي غلام على دينك... أسود... أجلد من هذا أعطيكه به...

قال: قبلتُ...

فأعطاه أبو بكر غلامه...

وأخذ بلالاً فأعتقه...

فهاجر وشهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ».

★ ★ ★

أقول: في رمضاء مكة... وقت الظهيرة... حيث تبلغ درجة الحرارة أكثر من خمسين درجة...

في هذا الجحيم المستعر... يُلقي أمَيّة بن خلَف... بلالا على وجهه تارة... وعلى ظهره تارة... ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُلقى على صدره!!!

ها هو سيدنا بلال يحترق ويحترق... ليس معه من أحَد!!!

يُعَذَّب وحده!!!

لا ناصر له... لا مُعين له!!!

وهو يهتف:

أحَدٌ!!!

أحَدٌ!!!

أحَد!!!

فيلتهب أميَّة غيظا... ويشويه بالسياط!!!
فيرتفع بلال ويرتفع:
أحَدٌ!!!
أحَدٌ!!!
أحَدٌ!!!
أحَد!!!
واهتزت الأرض والسماء... وكان لسان حالها يقول: ربَّاه... عبْدًا أسود... يُعَذَّب فيك... ولا ناصر له!!!

رسول الله... يقول:
لو كان عندنا شيء لاشترينا بلالا؟!

وفي رواية:
« فلقي النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه...
« فقال: لو كان عندنا شيء لاشترينا بلالا...
« فلقي أبو بكر العباس بن عبد المطلب فقال: اشتر لي بلالا...
« فانطلق العباس فقال لسيدته: هل لك أن تبيعيني عبدك هذا قبل أن يفوتك خيره؟...
« قالت: وما تصنع به... إنه خبيث... وإنه... وإنه...
« ثم لقيها... فقال لها مثل مقالته... فاشتراه منها... وبعث به إلى أبي بكر رضي الله عنه...
« وقيل: إن أبا بكر اشتراه وهو مدفون بالحجارة يعذب تحتها...» !!!

★ ★ ★

أقول: اختلاف الروايات في تعذيب بلال... يُؤدي الى حقيقة واحدة... أنه كان يعذب أشد العذاب... على ملأ من الناس... وأن ذلك كان متتابعًا زمانًا كثيرًا...

وأنهم عذبوه تارة بدفنه في الحجارة الملتهبة... وتارة بوضعها على ظهره... وتارة بوضعها على وجهه وبطنه... وقد حيل بينه وبين قطرة ماء في هذا الحرِّ القاتل!!!

وتارة بضربه بالسياط... وهم يسبونه ويلعنونه ويحقرونه!!!

وهو شامخ شامخ لا يزداد إلا تصلبا في دينه!!!

تارة يهتف بأعلى صوته:::

أحُدٌ... أحَدٌ... أحَد!!!

وتارة إذا حاولوا أن يستميلوه صرخ بأعلى صوته: الله... الله... الله!!!

قال سعيد بن المسيب ـ وذكر بلالا ـ: «كان شحيحًا على دينه... وكان يعذب... فإذا أراد المشركون أن يقاربهم قال: الله الله»!!!

هذه زاوية من زوايا شخصية بلال!!!

عملاق من عمالقة الحق والحقيقة!!!

يحار فيه زبانية الاجرام فتتحطم محاولاتهم تحطيما!!!

ألا ليس أحَد أقوى من شخصية المؤمن إذا ثبت على إيمانه بالله!!!

المشهد المقدّس؟!

قال صاحب أُسْد الغابة:

«شهد بدرًا... والمشاهد كلها...

«وكان من السابقين إلى الإسلام...

«وممن يعذب في الله عز وجل فيصبر على العذاب...
«وكان أبو جهل يَبْطَحُه على وجهه في الشمس!!!
«ويضع الرحا عليه!!!
«حتى تصْهَره الشمس!!!
«ويقول: اكفُر برب محمد...
«فيقول: أحَد... أحَد...»!!!

★ ★ ★

أقول: هذا هو المشهد المقدس... هذه هي اللوحة التي يجب أن توضع في متحف البشرية... لنتعلَّم منها كم تحمَّل هؤلاء العظماء... ليقدموا لنا -نحن الطفيليين- الدين سهلًا ميسورًا!!!

وددتُ لو قام فنان عالمي برسم هذه اللوحة الخالدة...

خطوطها العريضة:

عبد أسود... شبه عارٍ!!!

يُصْهَر في رمضاء مكة... في الشمس الحارقة!!!

من تحته حجارة تلتهب!!!

ومن فوقه رَحًا تلتهب!!!

وسادته يشوونه بالسياط!!!

وهو شديد العطش يمنعونه قطرة مَاء!!!

وهو يتصبب عرَقا... تكاد روحه تفارق جسده من الإعياء!!!

ويسبونه ويلعنونه بأقبح السباب!!!

وهو ثابت... بصره شاخص إلى السماء!!!

كلما ضربوه بالسياط... صاح بأعلى صوته: أحَدْ... أحَدْ... أحَدْ...

وكلما حاولوا أن يستميلوه... هتف بأعلى صوته: الله... الله... الله...!!!

فهل من فنان عالمي... يصُبَّ هذا الجمال في لوحة خالدة؟!!
لتكون رمزًا للتضحية في سبيل الله... إلى يوم القيامة؟!!

شهرة بلال كمؤَذِّن...
طمست على حقائق شخصيته؟!

المشهور في الأُمَّة أنّ بلالا كان مؤذن رسول الله ﷺ... في الحضر والسفر... إلى أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى...

وهذا كله صحيح... إلا أنه كان سببًا في نسيان الناس كثيرًا من حقائق شخصية بلال... لماذا؟... لأن الناس ألفوا بلالًا مؤذنًا لكل فريضة.... لا يغيب عن صلاة... فاستقر في تفكيرهم بلالٌ كمؤذِّن للنبي ﷺ...

وغاب عنهم بلال الشخصية المتكاملة شأنها شأن أجلاء الصحابة المقربين...

وغاب عنهم بلال المقاتل الحريص على الجهاد في سبيل الله... لنيل الشهادة لاعلاء دين الله...

ولم يكن بلال وحده الذي فهِمَه الناس فَهْمًا غير صحيح...

فقد حدث هذا بالنسبة إلى عددٍ من مشاهير عظماء الصحابة!!!

هذا عمر بن الخطاب يُعرَض في الكتب المدرسية عرْضًا بسيطًا... في صورة خليفة يتعسس ليْلا فيجد امرأة يبكي صغارها من حولها من الجوع... فيذهب إلى بيت المال ويعود حاملا على ظهره كيس دقيق... ثم يصنع لهم عصيدة... ويُعْرَض مع هذا الوصف صورة

لرجل عجوز تتدلى لحيته نصف متر وهو يحمل الدقيق على ظهره يتوكأ على عصاه!!!

فيرتسم في ذهن الأطفال من صغرهم أن عمر بن الخطاب كان مجرد رجل طيب يسهر على اطعام المساكين!!!

أما عُمَر... أعظم شخصية في التاريخ...

عمر الذي زلزل المشارق والمغارب... وفتح فارس والروم...

عمر الذي لم تشهد الأرض حاكمًا حكم الدنيا كلها... فعدَلَ فيها كلها... مِثْله...

عمر هذا المتكامل الرائع الجامع الفذّ الفريد...

كل ذلك طمسوا عليه... وعرضوا له مشهدًا باهتًا... لا يُعبِّر عنه في شيء!!!

من أين لنا هذا التشويه لشخصيات الاسلام العظمى؟!

إمَّا عن غَفلة مِنَّا...
وإمَّا عن مخطَّط إجرامي؟!

كانت هذه الصورة المبثوثة في بعض الكتب المقررة على المراحل الابتدائية في المدارس... التي تعرض عُمر عرْضا باهتًا... كانت تضحكني وما زالت تضحكني كلما ذكرتها!!!

أين عُمر... عملاق الحق والحقيقة؟!

أين عمر... الذي كان يفرّ منه الشيطان؟!

أين عمر... الذي فتح العالم كله؟!

لا شيء... إلا هذا العجوز... ذو اللحية البيضاء... المتقوس الظهر... الذي جلس ينفخ في النار يوقد على القدْر... والدخان

يتصاعد من بين شَعرات لحيته الطويلة!!!

مِن أين انتهت الينا هذه الانحرافات في عَرْض شخصيات الاسلام الكبرى؟!

ليس مجرد صُدْفة... ولكن عن تخطيط جهنميّ خبيث مرسوم بإتقان... وهو هزّ الاحساس بعظمة شخصيات الصحابة في نفوس المسلمين... ومتى اهتزّت ثقة المسلمين في عظمة شخصيات الاسلام... اهتزّت ثقتهم في الدين نفسه... وهذا هو الهدف الخبيث!!!

فما الدين في مفهوم المعاصرين إلا مجموع ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ...

فإذا ترسَّب في عقولنا أن هؤلاء كانوا مجرد ناس طيبين يتصدقون على الفقراء والمساكين... ويبكون في صلواتهم خوفًا من عذاب الآخرة...

ترتَّب على ذلك نشوء مفهوم خاطئ في عقولنا... أن الإسلام ليس نظامًا املًا لخيري الدنيا والآخرة... وإنما مجرد دعوة إلى إغاثة المسكين!!!

من أين هذا العَرْض الكئيب الباهت لشخصيات الصحابة العظماء؟!

ربما كان عن مخطَّط صادر عن أعداء الإسلام في العالم!!!

إلّا أنه ما كان ليحقق غرضه... لولا هؤلاء المضلّلون من المسلمين الذين تأثروا بهؤلاء الأعداء... فنقلوا الينا انحرافاتهم وهم لا يشعرون!!!

إنهم يعرضون أبا بكر... الشخصية الإسلامية الأولى... في صورة رجل ضعيف إذا قام في الصلاة يصلي بالناس انهملت دموعه على خدَّيْه!!

ولكن أين باقي الشخصية؟!... أين أبو بكر الذي وقف يوم

الردَّة... يحارب العرب كلهم وحده... حتى دمَّر المرتدين ووحَّد الدين؟!!!

ثم لم يقف عند هذا... ولكن أمر بغزو فارس... ثم الروم... في وقت واحد؟!!

أين هذا الجبَّار على الكفَّار؟!!

أين هذا الهدَّار بلا إله إلا الله وحقوقها؟!!

لا شيء عندهم من هذا... إنما هو مجرد رجل رقيق كثير البكاء!!!

بديهي... أن الجريمة الكبرى من وراء هذا العرض الباهت للشخصية الأولى في الإسلام... هو أن ينتشر في مفاهيم مسلمي اليوم... أن الإسلام لا شأن له بشئون الحياة والحُكْم والسياسة... فها هي شخصيته الأولى... مجرد عابد بَكَّاء!!!

وكما صنعوا هذا بأبي بكر... صنعوه في شخصية عمر... مفخرة الإسلام... بل الإنسانية كلها... وقد مضت الصورة الباهتة التي عرضوه فيها عن قريب...

وما زلت أذكر... وما زال يضحكني هذا الكاتب الشهير الذي كتب عن أعظم شخصية في الاسلام في العصور الوسطى... عن صلاح الدين... كتب كتابًا ضخمًا... جعلت أبحث فيه عن شخصية البطل الأعظم... قاهر الصليبيين... ومحطِّم أنوف الطغاة... فلم أجد شيئًا... إلا ما يُضحك... أنَّ صلاح الدين عند هذا الكاتب... قضى عمره كله يدافع عن نفسه ضد مكائد الحشَّاشين!!!

أين صلاح الدين... الفارس؟!!

أين صلاح الدين... الإنسان؟!!!

أين صلاح الدين... قاهر الصليبيين؟!!

لا شيء... إلا «صلاح الدين ومكائد الحشَّاشين»!!!

ومتى تمّ تحطيم صورة أعظم شخصية إسلامية في تلك العصور... فقد تم تحطيم ما دُونَها من الشخصيات... فقد تمّ تحطيم التاريخ الإسلامي كله في تلك العصور!!!

مخطَّط رهيب قذر خبيث... من ورائه عمالقة الشياطين...

ونحن ـ وهذا ما يُضْحِك أكثر وأكثر ـ نقرأ ونُصَدِّق ونتأثّر!!!

وتنشأ أجيال من المسلمين على مفاهيم خاطئة في فَهْم حقائق شخصيات الصحابة... وأعلام الإسلام!!!

وكان لشخصية بلال بن رَباح... نصيب من هذا البلاء... بلاء فَهْم كثير من المسلمين للشخصية فهْما ضَيِّقًا محدودًا!!!

ليس مجرد مؤذِّن...
ولكن ثاني اثنَيْن...
حُرٌّ... وعَبْدٍ؟!

يجب أن يتجدد فهمنا لشخصية بلال... يجب أن نعلم أنه أوّل مَن آمن إلَّا أبا بكر...

بل ربما آمن كل منها... في نفس الوقت الذي آمن فيه الآخر...

وإنما اشتهر أن أبا بكر أوّل من آمن... باعتباره أوّل رجل حُرّ...

ولكن بلالًا كان عبْدًا... فلم يأخذ شهرة أبي بكر... ولم يلتفت إليه أحَد...

وفي الأثر الذي مضى عن قريب: «يا رسول الله مَن تَبعَك على هذا الأمر؟

«قال: تبعني عليه حُرٍ وعبْدٌ أبو بكر وبلال...»!!!

إذًا دخل بلال الإسلام مع أبي بكر... في أصعب اللحظات شدة...

في الأيام الأولى...

كان ثاني اثنيْن... أبي بكر وبلال!!! فما معنى هذا؟!

معناه أن شخصية بلال شخصية فذَّة... ثم فذَّة!!!

آمَن حيث لا يوجد مؤمن من الرجال غير أبي بكر...

بل كانت ظروفه أصعب... لأن أبا بكر له عشيرة تحميه لأنه رجل حُرّ...

أمَّا بلال... فلا عشيرة تحميه... لأنه عبد مملوك... مستباح الدم والعِرْض!!

وأخرى تُعطي بلالًا فَضْلًا...

أنَّه أوَّل عبْد أسود رقيق... يؤمن بالله ورسوله وهذا الدين الجديد... فهو رائد حرية العبيد في العالم أجمع إلى يوم القيامة...

لأن دخول الاسلام معناه التحرر الكامل من العبودية والاستعباد!!!

فانظر إلى آثار الفَهْم الخاطئ... لشخصية بلال... أنه مجرد مؤذِّن... والحقيقة أنه من أعظم شخصيات الاسلام على الاطلاق؟!!

وأنه نال ما نال... بسبقه إلى دخول الإسلام... في وقت كان دخول الإسلام معناه الهلاك المحقَّق...

وقد رأينا ماذا كانوا يفعلون به من تعذيب وعذاب؟!!

وهو كالطود الشامخ الذي لا يلين!!!

صاحب الصوت الجميل؟!

إذا اختار رسول الله ﷺ أحَدًا ليؤذِّن... من دون أصحابه جميعًا... وجب علينا فورًا أن نفكِّر:

لماذا اختار بلالًا بالذات والصحابة غيره كثير؟!

الجواب:

ربما لأن صوته جميل... محبَّب إلى الناس سماعه!!!

والحديث يشير إلى هذا: «فقم مع بلال... فألق عليه ما رأيت... فليؤذن به... فإنه أندى صوتا منك».

وربما لما في اختيار بلال لإعلام الناس بالصلاة من رمزٍ إلى أن هذا الدين الجديد... يدعو إلى تحرير الانسان... فها هو عبد أسود حبشي... هو منادي الناس إلى الصلاة... وها هم أولاء يتوافدون تباعًا استجابة لندائه... وهو العبد المملوك... (باعتبار ما كان)...

ولكن سوَّى الاسلام بينه وبين جميع الناس...

فإذا وقف بلال العبد الأسود على أعلى بيت حول المسجد بالمدينة... كل يوم خمس مرات... ينادي الناس جميعًا إلى أداء أعظم فروض هذا الدين... وإذا استجاب لندائه كلّ الناس... حُرَّهم وعبْدهم... غنيهم وفقيرهم... كان هذا رمزًا عظيمًا... لحقيقة من حقائق هذا الدين الجديد... أنّ الناس سواسية!!!

وربما كان اختيار بلال للأذان... تكريمًا للعبيد في أنحاء العالم كله إلى أن تقوم الساعة... أنَّ خلاصكم يتحقق بدخولكم في هذا الدين الجديد الذي يمنحكم حريتكم... ويرفعكم إلى أعلى مراتب الحياة...

وربما كان اختيار بلال... تكريمًا للسابقين إلى دخول الإسلام... وبلال كان أحد رجلين سَبَقا... أبي بكر وبلال...

هذه كلها احتمالات... ويبقى احتمال هام: ولكن لماذا بلال بالذات ليؤذّن للمرة الأولى في انحاء العالم وليس أحَدًا من الصحابة سواه؟!!

ربما كان السرّ في اختيار بلال أنه كان شخصية تجريدية...

أي أنه كان عميق الإيمان بالله... إلى درجة أنه لا يرى إلا الله...

وكان هذا التجرد متميزًا في شخصية بلال...

أشار اليه هتافه المتواصل وهو يعذب في مكة: أحَدٌ... أحَدٌ... أحَد...

فهو أَحَدِيّ المشرب...

ويشير إلى ذلك قوله كلما أرادوا أن يستميلوه: اللهْ... اللهْ... الله!!!

فهو لا يرى إلا الله... ولا يُثبِت وجودًا حقًّا إلا لله...

وكانت هذه الصفة بارزة فيه أكثر من صفاته العُلْيا الأخرى...

فإذا قام مِثْل هذا العظيم... المتميز بتلك المزية... ونادى بكلمات الأذان... تموَّجت منه حَيَّة رَطْبَة كأنها أنزلت لساعتها من السماء...

وكان لها وقع جميل... أخَّاذ جذَّاب... يشد القلوب والأسماع...

لقد كان بلال يصُبُّ في كلمات النداء وهو ينادي بها... من روحه الصافية... ونوره الوهَّاج...

فكان خير تمثيل لحقيقة هذا الدين الجديد...

وكان خير سفير يدعو الناس إلى خير دين!!!

كان يُؤَذِّن محتسبًا؟!

مثْل هذا الصحابي الجليل العظيم... السبَّاق الى هذا الدين العظيم...

كان يبحث دائمًا عن القمة مِن كل فضيلة...

ومَن كان هذا شأنه... باحثًا عن أعلى مراتب الفضائل...

كان أذانه دائمًا لوجه الله... لا يأخذ على أذانه أجْرًا...

إنه يريد الأعلى دائمًا...

والأعلى أن يكون العمل خالصًا لوجه الله...

وكذلك كان بلال... في الأذان... وفي اختياره لأسلوب حياته كلها...

انظر إليه... حين دأب على التأذين لرسول الله ﷺ... طيلة حياته

الشريفة... عليه السلام... لأن قيامه بتلك الوظيفة في حياة النبي ﷺ يحقق له أقصى ما يأمل من أعلى أعالي الدرجات عند الله...

يحقق له أن يكون مع النبي ﷺ... حيث أقام... وحيث سافر... وحيث غزا... وحيث حجّ أو اعتمر...

يحقق له استباق الخيرات كلها... باتباعه لرسول الله ﷺ في المشاهد كلها...

فضلًا عن الميزة التي اختصه الله بها... ميزة الإعلام بالصلاة... والنداء لها!!!

هو صاحب مقامات علًى... فكيف يأخذ على أذانه أجْرًا؟!!

أيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!!

وأخرى... هي مجامع شخصيته النبيلة الجليلة... وهي قولهم:

شهدَ بدْرًا... والمشاهد كلها؟!

هاهنا نجد مجامع شخصية بلال... فكيف؟!

أولًا: ما معنى «شهد المشاهد كلها»؟!!

معناها بحر لُجِّيّ لا ساحل له... فإنك إذا أردت أن تفصّل معنى هذه الجملة... «شهد المشاهد كلها»... فإن عليك أن تتبّع حياة رسول الله ﷺ مذ بعثه الله إلى أن توفّاه الله...

وهذا شيء تضيق به أضخم الأسفار...

فما من مشهد في حياة رسول الله ﷺ... إلا كان بلال شاهدًا له...

لأنه كان المؤذن سفرًا وحضرًا... والصلوات متتابعة كل يوم وليلة...

فمن أراد أن يتحدث عن المشاهد التي شهدها بلال مع رسول الله ﷺ... فعليه أن يحصي مشاهد حياة النبي ﷺ... وهذا شيء يطول...

مِن هنا كانت هذه الجملة «شهد المشاهد كلها» مجامع تحليل شخصية بلال... لأنها جامعة مانعة...

ما مِن مشهد لرسول الله ﷺ... إلا كان بلال شاهدًا له...

فانظر أثر ذلك في شخصية بلال؟!!

إنه يرى ويشهد رسول الله ﷺ... منذ أسلم في الأيام الأولى للدعوة إلى أن توفى اللهُ رسوله ﷺ...

كان بلال رمْزًا داعيًا بصوته إلى هذا الدين... وكان ملازمًا للنبي ﷺ... في المشاهد كلها... فتربَّى... وتزكَّى... وتعلَّم... ساعة بساعة... ولحظة بلحظة... فمن في الناس مِثْل بلال؟!!

وشاهَدَ الوجْه النبويّ الجميل...
كل يوم خمس مرات؟!

قالوا: و«الصحيح الذي عليه الجمهور... أن كل مسلم رأى النبي ﷺ... ولو ساعة... فهو من أصحابه»!!!

فكيف كان بلال... وقد رأى النبي ﷺ... كل يوم خمس مرات... وهو يقيم للصلاة... كلما رأى النبي ﷺ مقبلًا؟!!

كيف وقد رآه كل يوم خمس مرات في المدينة على امتداد نحو عشر سنين... منذ ان بدأ التأذين إلى أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى؟!!

أم كيف وقد رآه قبل ذلك... منذ آمن به في مكة... وكان أحد اثنين... وهو وأبي بكر... كان يراه... وكان حريصًا على أن يراه

مهما احتمل في ذلك؟!!

أم كيف وقد رآه... حين شهد المشاهد كلها؟!!

إذا كانت ساعة واحدة يظفر بها المرء ويرى فيها النبي ﷺ تجعله من أصحاب النبي ﷺ...

فكيف بمن شهد المشاهد كلها على امتداد الدعوة في مكة والمدينة... وهو في كل ذلك يشهد النبي ﷺ؟!!

آمن بلال منذ آمن أبو بكر... أي من بدء الاسلام... أي عاصر بلال الإسلام في مكة من أول الدعوة حتى الهجرة... ثم عاصره طيلة فترة المدينة... عشر سنين...

أي أكثر من عشرين عامًا وبلال يشهد المشاهد كلها...

وينعم برؤية النبي ﷺ ليلًا ونهارًا...

دائمًا كلما أقام للصلاة...

وحسبما قَسَم الله له في سائر المشاهد...

فكم كانت آثار ذلك الشهود للوجه النبوي الكريم في كل حين؟!!

لقد تكونت شخصية بلال مما اكتسبت من أنوار اشراق الذات المحمدية... وكانت تزداد بكل شهود نورًا على نور!!!

فارس شَهِد بَدْرًا؟!

لماذا سَبَقَ أهل بَدْر الناس جميعًا؟! لأنهم أصحاب معركة الطليعة... التي فتحت أبواب النصر للحقّ إلى يوم القيامة...

ودمّرت على أهل الباطل إلى أن تقوم الساعة...

كان بلال فارسًا من فرسانها... وشهدها كلها... من أولها إلى آخرها... وكان هو المنادي بالصلاة... ثم زاده الله شرَفًا على شرف... فكان هو...؟!

قاتل... رأس الكُفْر...
أمَيَّة بن خَلَف؟!

لَمَحهُ مع عبد الرحمن بن عوف فصاح بأعلى صوته: رأس الكفر... أُمَيَّة بن خَلَف... لا نجوتُ إن نجا!!!

ثم انقضَّ عليه هو ومَن استجاب لصرخته... فقَطَّعوه بالسيف تقطيعًا!!!

هذه حقيقة شخصية بلال...

ما كان بلال مجرد مؤذن يؤذن للصلاة ولا شيء بعد ذلك...

كلا... وإنما كان صحابيًا جليلًا... بناءُ شخصيته يقوم على التكامل في كل خير أمَرَ الله به...

فهو مقاتل من الطراز الأوّل... لا يقوم لغضبه شيء إذا غضب لله...

وتلك هي الصفة العليا السائدة في جميع أصحاب رسول الله ﷺ...

والتي امتازوا بها على سائر طبقات الأمّة الى يوم القيامة...

إنهم جنود الله... أنصار الله... إمَّا النصر وإمّا الشهادة...

فركع التاريخ لهم إجلالًا وتعظيمًا!!!

وها هو أحدهم... بلال... فارس... يقتل مجرمًا فاجرًا كافرًا... أمَيَّة بن خَلَف...

هذا القبيح الذي كان يعذبه بأقبح أنواع العذاب بمكة!!!

اختياره دليل شخصيته؟!

وكان حوارًا خالدًا... بين الرجلين اللذين كانا أوّل رجلين دخلا الإسلام... أبي بكر وبلال... قالوا:

«لما توفي رسول الله... ﷺ جاء بلال إلى أبي بكر... رضي الله عنه فقال:

«يا خليفة رسول الله ﷺ...

«إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل أعمال المؤمن الجهاد في سبيل الله»...

«وقد أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت...

«فقال أبو بكر: أنشدك الله يا بلال... وحرمتي وحقّي... فقد كبرت... واقترب أجلي...

«فأقام بلال مع أبي بكر حتى توفي أبو بكر...»!!!

انظر هنا إلى اختيار بلال...

إنّ الفضائل كثيرة... ولكنه يبحث عن أعلى الفضائل...

يبحث عن قمة القمم... عن ذروة سنام الأمر... الجهاد في سبيل الله...

ولذلك حفظ هذا الحديث... وخالط الحديث دمه ولحمه وشعوره وأحاسيسه...

«أفضل أعمال المؤمن الجهاد في سبيل الله»؟!!

فهو يريد التوجه إلى هذه القمة... يريد أن يذهب إلى الشام مقاتلا لأعداء الله حتى يظفر بالشهادة في سبيل الله إذا قسمها له الله...

وليس هذا إحساسًا عارضًا لا يلبث أن يزول... وإنما شيء مستقرّ في تكوينه... توّاق إليه ومشتاق...

فهو يلح على أبي بكر... فلمّا استمهله... تلبث حتى إذا توفي أبو بكر...

جاء إلى عمر... وقال له مثل ما قال لأبي بكر...

فلمّا قال له عمر: ما يمنعك أن تؤذن؟... كان من جوابه: «وقد

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يا بلال...

«ليس عمل أفضل...

«من الجهاد في سبيل الله»!!!

فخرج إلى الشام مجاهدًا!!!

ووعاها... طيلة حياته... واتخذها وجهة له في حياته كلها «يا بلال... ليس عمل أفضل... من الجهاد في سبيل الله»!!!

وأصرَّ بلال على تطبيقها تطبيقًا تامًّا... وعاش في الشام مقاتلا لأعداء الله إلى أن مات سنة عشرين في عهد عمر!!!

«يا بلال... ليس عمل أفضل من الجهاد»؟!!

ومنذ سمعها بلال من رسول الله ﷺ... وهو يعيش عليها ولها...

قمة القمم... الجهاد في سبيل الله...

وبلال... يبحث دائمًا عن أعلى شيء يتقرب به إلى الله...

وقد عثر عليه في توجيه رسول الله ﷺ...

فانتظم عليه طيلة حياته المباركة!!! وهكذا كان اختيار بلال دليلًا على شخصيته!!!

لماذا أبى أن يؤذِّن...
بعد وفاة النبيّ ﷺ؟!

لماذا رفض بلال البقاء بالمدينة المنورة... كما رفض الآذان بها... بعد وفاة النبي ﷺ؟!!

الجواب كما قال الكرماني:

«أراد بلال أن يهاجر من المدينة... «فمنعه أبو بكر... اراده ان

يؤذن في مسجد رسول الله ﷺ...

«فقال: إني لا أريد المدينة بدون رسول الله ﷺ...

«ولا أتحمل مقام رسول الله ﷺ خاليًا عنه.»!!!

وهذه قضية خطيرة جدًا... في تحليل شخصية بلال...

وما حدث من بلال بعد وفاة النبي ﷺ...

من توقفه عن الآذان بالمدينة... واستئذانه الخليفة ليرحل عن المدينة إلى الشام...

ومحاولة أبي بكر أن يجعله يتراجع عن تصميمه ذاك... ورفض بلال لهذا الرجاء...

كل ذلك يدل على شيء واحد... أن بلالاً لا يطيق المدينة خالية من رسول الله ﷺ... ولا يستطيع أن يتحمل مقام رسول الله ﷺ خاليًا منه!!!

وهذا دليل شدة الحبّ... حبّه لرسول الله ﷺ... حبًّا أخذ عليه إحساسه كله... فلمّا انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى...

أحسَّ بلال بفراغ كبير!!!

ها هنا في هذه المدينة المنوَّرة... كانت سعادته الكبرى ليلًا ونهارًا... إنه لن ينسى أوَّل مرَّة حين قال له النبيّ ﷺ:

«يا بلالُ... قُمْ فَنَادِ بالصلاةِ»!!!

ومن تلك اللحظة وبلال كلما كان موعد صلاة من الصلوات الخمس... جعل ينادي بالصلاة...

إنه لم ينس حين اختاره ﷺ... وأكرمه ليكون هو أول من أذَّن في الاسلام... حين قال ﷺ لعبدالله بن زيد:

«فقُم مع بلال... فألق عليه ما رأيت... فليؤذن به... فإنه أندى صوتًا منك.»!!!

لقد بثَّ ﷺ في بلال آنذاك شجاعة لا تتناهى!!!
رجل أسود حبشي... كان قبل أن يُسلم بمكة لا يساوي شيئًا...
وها هو يختاره النبيّ ﷺ ليكون الداعي إلى الدين الجديد...
وأحسَّ بلال ساعتئذ بفرحة يكاد يطير لها سرورًا!!!
أيّ تكريم وأيّ فوز عظيم؟!!

ما أحسنَ هذا يا بلال؟!

وكيف ينسى بلال... تلك اللحظة في حياته مع النبي ﷺ... حين أتى النبيّ ﷺ يؤذنه بالصبح فوجده راقدًا... فقال: الصلاة خير من النوم... مرتين فقال النبي ﷺ:

«ما أحسن هذا يا بلال... اجعله في أذانك»!!!

كيف ينسى هذا بلال... وهو غاية في التكريم؟!!

فكيف يستطيع بلال أن يبقى بالمدينة وقد خلت من رسول الله ﷺ؟!

أم كيف يطيق أن يرى أحَدًا يقوم مقام النبيّ ﷺ... في المحراب؟!

أين الرحمة التي كانت تملأ فجاج المدينة في حياة النبيّ ﷺ؟! أين النور الذي كان يتشعشع أينما سار رسول الله ﷺ؟! أين في الناس مِثْل وجهه الشريف ﷺ... وهو يتلألأ مُقبلًا على أصحابه... فينهض بلال يقيم الصلاة؟!!

صَعْب... صَعْب جدًّا أن يحتمل بلال كل هذا... وأن نكلفه أن يبقى بالمدينة بعد انتقال رسول الله ﷺ!!!

الناس مذاقات شتَّى؟!

فإن قيل: ولماذا لا يُطيق بلال المدينة بعد وفاة النبي ﷺ... وقد بقي بها عظماء الصحابة... وحسبك أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ... ومئات منهم رضي الله عنهم؟!!

قلنا: أذواق الناس تختلف... والقلوب مذاقاتها شتَّى...

ولكل إنسان تعبيره الخاص حين يُعَبِّر عن مشاعره...

وكلنا نعلم ماذا كان من عمر بن الخطاب حين بلغه وفاة النبيّ ﷺ فذهب يُكَذِّب هذا الزعم... ويهدد المرجفين الذين أذاعوه بالقتل!!!

فلما تبين له أن رسول الله ﷺ قد مات... خرَّ مغشيًّا عليه...

فهل يقال أن بعض الصحابة الذين تلقَّوا خبر الوفاة بتصديق وثبات لم يخرجهم عن وعيهم... كانوا أقوى من عمر وأفضل؟!

كلا... فإنَّ عُمَر أقوى وأفضل منهم... ولكن شخصية عمر هكذا... سريع الانفعال... يُعَبِّر عن شعوره تعبيرًا عنيفًا...

كذلك بلال... صحيح أن عظماء الصحابة مكثوا بالمدينة بعد النبي ﷺ... فلا يقال: لماذا لم يمكث بلال كما مكثوا؟... ولكن يقال: هكذا شخصية بلال... لا يحتمل أن يبقى في مكان غاب عنه حبيبه الذي ليس كمِثْله حبيب!!!

خلاصة شخصيته؟!

ما هي خلاصة شخصية بلال؟!!

خلاصة شخصيته هي «شهد المشاهد كلها»!!!

فكيف كانت شخصية بلال وقد شهد المشاهد كلها؟!

أي لم يغب عن مشهد شهده رسول الله ﷺ ؟!!

أمّا الدخول في التفاصيل فهو أمر يطول... يستلزم سرْد السيرة النبوية من أولها إلى آخرها... لنعرض من خلالها ماذا شهد بلال من تلك المشاهد؟!

ولكن ندخل إلى صُلْب الموضوع وهو: إذا كان بلال قد شهد المشاهد كلها... فماذا كان أثر تلك المشاهد في تكوين شخصية بلال؟!!

أقول: تكونت شخصية بلال بعد دخوله الاسلام... من تلك المشاهد التي شهدها... شأنه في ذلك شأن كل صحابيّ شهد رسول الله ﷺ...

وإنما تتفاَوت مراتب الصحابة رضي الله عنهم... بنسبة إيمانهم... وحُبّهم لرسول الله ﷺ... وملازمتهم لصحبته ﷺ...

أمّا الإيمان فحظّ بلال منه حظّ عظيم...

يشهد لذلك سبقه إلى الاسلام... حيث كان ثاني اثنين... أبي بكر وبلال...

وأمّا حُبّ رسول الله ﷺ ... فقد كان له من حُبّه النصيب الأوفى... ويشهد لذلك رفضه البقاء بالمدينة... أو التأذين بالمدينة... بعد وفاة رسول الله ﷺ...

وأمّا ملازمته لرسول الله ﷺ... فهو صاحب النصيب الأوفى من تلك الملازمة... وحسبه أنه كان يراه كل يوم خمس مرات ـ على الأقل ـ مقبلًا للصلاة!!!

لقد استوفى بلال عناصر التقدم بين الصحابة...

الإيمان... والحُبّ... وملازمة صحبة رسول الله ﷺ!!!

شهد أحسن المشاهد...
ولم يشهد الفتن؟!

إذا فرضنا أنَّ بلالًا أسلم في السنة الأولى للدعوة بعد إسلام أبي بكر...

كان معنى هذا أن بلالًا شهد الاسلام في مكة قبل الهجرة...

ثم شهد الإسلام في المدينة من الهجرة إلى وفاة النبي ﷺ... ثم مات بلال سنة عشرين في خلافة عمر...

أي إن عُمْر بلال في الإسلام أكثر من ثلاثين عامًا...

وهذه الثلاثون هي أعظم فترة في تاريخ الاسلام...

عهد النبوة... وعهد أبي بكر... وأكثر عهد عمر...

الفترة التي كان فيها الاسلام صافيًا... نقيًّا...

وكان المسلمون على الصراط المستقيم...

وكانت الدولة الإسلامية هي الدولة الأعظم في أنحاء العالم...

وهذا تكريم عظيم للبطل بلال... عاش أحسن سنوات الإسلام...

وأعفاه الله من شهود الفتن حيث يقتل المسلم أخاه المسلم!!!

ومن هنا يمكن أن نقول:

دخل بلال الإسلام... عبدًا مملوكًا...

صبُّوا عليه العذاب صبًّا!!!

اشتراه أبو بكر ثم أعتقه!!!

هنالك تحرر بلال مرتين... مرَّة حين أسلم... فانتقل من عبودية الأصنام إلى حرية الاسلام... ومرَّة حين أعتقه أبو بكر... فخرج من عبودية الرِّق إلى حرية الأحرار!!!

فلمَّا كان بالمدينة واختاره رسول الله ﷺ ليؤذِّن بالصلاة عاش بلال

أحسن أيّام الإسلام بالمدينة...

فلمّا كانت خلافة أبي بكر... نزل على رجاء أبي بكر... وأذّن له كما كان على عهد رسول الله ﷺ...

فلمّا كانت خلافة عُمر أَذن له في الذهاب الى الشام...

فذهب بلال إلى الشام مجاهدًا في سبيل الله...

يقاتل أعداء الاسلام... حتى توفاه الله سنة عشرين...

هذه الثلاثين عامًا أو تزيد هي عُمْر بلال الإسلامي...

ومن حيث أنه مات وهو ابن بضع وستين سنة...

فيمكن أن يقال أن بلالًا قضى نصف عمره في جاهلية ورِقّ... ونصفه في نور الإسلام... وحرية الأَحرار... أي اكثر من ثلاثين عامًا في الجاهلية وأكثر من ثلاثين عامًا في الإسلام!!!

أي أنه أسلم في نحو الثلاثين.... ومات في بضع وستين!!!

وثلاثون عامًا أو تزيد... هي أحسن أيام الإسلام... عصر النبي ﷺ والشيخين من بعد... عاشها بلالٌ طُولا وعرْضًا...

ولم يشهد ما حدث بعد ذلك من فتن كقطع الليل المظلم!!!

وهذا تكريم عَظيم... بعد تكريم!!!

ثوابٌ لا يتناهى؟!

باعتبار أنَّ بلالا أوّل مَن أذَّن... فإنَّ له مِثْل أجْر جميع مَن أذَّن إلى يوم القيامة!!!

فكم يبلغ أجْر بلال إلى أن تقوم الساعة؟!

لو فرضنا أن المسلمين الآن مليار مسلم في أنحاء العالم...

وأن المساجد تُقام بنسبة مسجد واحد لكل الف مسلم...

فإن عدد المساجد في أنحاء العالم اليوم مليون مسجد... أو تزيد...

وأنَّ كل مسجد يؤذَّن فيه كل يوم خمس مرّات...

فإنَّ عدد الأذانات كل يوم في الكرة الأرضية أكثر من خمسة ملايين أذان... أو تزيد...

كلما تردّد أذان من هذه الخمسة ملايين... يوميًا...

كان لبلال مِثل أجْر هذا الأذان لا ينقص مِن أجْر المؤذِّن شيئًا!!!

فانظر كم يبلغ ثواب بلال كلما أذَّنَ مؤذِّن... منذ وفاة النبي ﷺ... إلى الآن... ثم إلى أن تقوم الساعة؟!!

رَقْم فلكيّ... لا تدركه العقول!!!

ومن هنا كان بلال يؤذن محتسبًا لوجه الله...

لم يأخذ على أذانه أجْرًا!!!

إنه يريد وجه ربه الأعلى!!!

فأعطاه الله!!!

ثم أعطاه!!!

ثم أعطاه!!!

بلال . . .

كما يراه . . .

العقّاد . . . ؟

مِن كتابه « داعي السماء ـ بلال مؤذّنُ الرسول » للأستاذ عباس محمود العقاد...

نلتقط لك مقتطفات من هذا الكتاب الجميل... إتمامًا للفائدة... واستكمالًا للموضوع:

« كانت للإسلام كلمة في انصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة الحضارة العصرية والعلم الحديث...

« وكان في صحابة النبي عليه السلام رجل أسود...

« هو بلال بن رباح مؤذنه الأول...

« فكان أثيرًا عنده... وعند الخلفاء... وجلّة الصحابة والتابعين. »

من سلالة زنجية؟!

وقد قيل في تاريخ بلال انه من الموالي المولدين بمكة... أو بالسراة اليمانية...

فأصدق ما يقال فيه أنه من سلالة زنجية سامية...

يبحث عن عقيدة تَنكر الظلم؟!

وقد كان بلال من أضنك العبيد حالًا قبل الإسلام...

وكانت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية...

ظلما للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد...

فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب... قليل العضد... غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدّية...

وكان العبيد أسوأ حالًا من وضعاء النسب لأنهم لا ينسبون إلى أحد معروف... ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة...

فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والأقدار...

وكان خلاصهم كله في عقيدة تُنكر الظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه ينقض شريعة المساواة...

وقد تكفل الإسلام بهذا الخلاص من جانبِه... لأنه ينكر ظلم القسوة... وينكر ظلم الاجحاف والمحاباة... فحقّ له أن يلبي دعوته... وأن يدعو إليه...

آمَنَ بالدين الذي ينصف العبيد؟!

وبلال حين آمن بالاسلام قد آمن حقًا بالدين الذي ينصف العبيد...

ولكنه قد آمن به على السُّنّة التي ترضي الكرامة الإنسانية... لا على سُنة المساومة والمصافقة...

أو هو قد آمن به انسانًا كما آمن به السادة الأحرار القادرون على

شراء العبيد والإماء...

وأقل ما يقال في تعليل إسلامه انه إعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة...

وإنه إيثار للخير الكبير على الخير الصغير... وانه استقامة طبع تهتدي إلى الصراط المستقيم...

وانه شوق إلى الحق الذي يريح النفوس وليس بشوق إلى الرفاهية التي تريح الأجساد...

نشأة بلال؟!

اتفقت الأقوال على أن بلالًا كان من أبناء الحبشة المولدين...

وجاء في وصفه أنه رضي الله عنه كان «آدم... شديد الآدمة... نحيفًا طوالًا ـ أي فيه انحناء ـ كثير الشعر خفيف العارضين»

ويختلف في مولده فيقال إنه ولد في مكة... ويقال إنه ولد في السراة... وربما رجح القول الأخير لأن السراة أقرب إلى اليمن والحبشة... ولأن بلالًا رضي الله عنه رجع إليها حين فكر في الزواج...

وأرجح الأقوال في سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث وأربعين سنة... وأبوه وأمه معروفان: أبوه يدعى رَباحًا وأمه تدعى حمامة...

وكان ينبز بابن السوداء إذا غضب منه غاضب...

ولعل أمه كانت من إماء السراة أو إماء مكة... إذا صح أنه لم يولد بالسراة.

وكانت نشأة بلال بمكة في بني جُمَح من بطون قريش المشهورة..

ولم يعلم على التحقيق مَن كانوا سادة بلال وأبيه من بني جُمَح هؤلاء؟...

فقيل إنه كان عند عقيلة من عقائلهم...

وقيل انه كان عند أيتام لأبي جهل...

وقيل انه كان عند أمية بن خلف وبعض ولده...

واتفقت الأقوال على أن الصِّدِّيق رضي الله عنه هو الذي استنقذه من أيديهم بعدما عاينه من تعذيبهم إياه لدخوله في الإسلام...

واستراح بلال بعد عتقه من إيذاء السادة للعبيد... ولكنه لم يسترح ولا استراح غيره من إيذاء الأحرار للأحرار... ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم العصبية ولا الخوف من الثأر...

هاجر إلى المدينة؟!

أشفق النبي الكريم على صحبه وأذن لهم في الهجرة قبله...

وكان بلال ممن هاجر إلى المدينة على إيثار منه للبقاء في مكة...

فلما وصل النبي عليه السلام وصاحبه الصّدّيق الى المدينة كانت «أوبأ أرض الله من الحُمّى»... ولكنها أرحم بهم من جيرة المشركين في مكة...

ونزل الصّدّيق وعامر بن فهرة وبلال في بيت واحد... فأصيبوا جميعًا بالحُمى... ولعلها الملاريا...

له حظّ السبق بالأذان؟!

وقد لزم بلال النبيّ والصِّدِّيق بالمدينة ومكة... وسائر المغازي والأسفار بعد ذلك...

وكان لمسجد المدينة الذي اشترك النبي عليه السلام في بنائه حظٌّ الأذان الأول...

فكان لبلال حظّ السبق بهذا الأذان...

ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين في حضرة النبي حتى قُبض عليه السلام...

ومُيّز بالتقدم عليهم لتقدمه في الإسلام... ولجهارة صوته... وحسن أدائه...

وإن كان تقدمه في الإسلام هو أرجح المزيتين التي استحق بها التفضيل والتكريم...

الصلاة يا رسول الله؟!

كان إذا فرغ من الأذان وأراد أن يُعْلم النبي عليه السلام أنه قد أذن... وقف على الباب وقال: حيّ على الصلاة!... حيّ على الفلاح!... الصلاة يا رسول الله...

فإذا خرج رسول الله فرآه بلال ابتدأ في الإقامة...

عش فقيرًا يا بلال... ومت مع الفقراء؟!

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه أهل لاصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم...

فكان يقول له: يا بلال! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله...

وكان يقول له: عش فقيرًا يا بلال ومت مع الفقراء...

وربما عهد إليه في تفريق ما يفضل من المال عنده...

وقال له: أنظر حتى تريحني منه... فيرى بلال القدوة في سيده ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين... ويظل على هذه القدوة حتى فارق الحياة...

فكان اصطفاء النبي هـذا الصـديـق المؤمـن الأمين اصطفـاء المربي الكبير للرجل تثمر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يثمر فيه الصنيع الجميل... ويُحب للطف محضره كما يحب لخلوص طويته وفضائل نفسه...

لم ينقض يوم إلا جمعها فيه الصلوات الخمس؟!

وقد كان كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طول صحبته بين الحرب والسلم والإقامة والسفر...

ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذه حارسًا يحميه كما يحمي الحراس الأمراء والسلاطين... وإنما كان يستصحبه في إقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه... وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد وحيث لا يريد...

فإذا اشتد الهجير في رحلة من الرحلات أسرع إلى تظليله بثياب الوشي والنَّبيّ لا يسأله ذلك...

وإذا تهيأوا للقتال ضرب له قبة من أدم يرقب الموقعة منها... وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الأمر منه...

فلم يفرّقهما موقف ضنك ولا موقف خطر...

ولم ينقض يوم إلا جمعها فيه الصلوات الخمس... ومجالس العظمة والحديث...

ما لم يكن في غيبة قصيرة لشأن من شؤون الدين الذي لم يكن له شأن سواه...

يقيم الأذان على ظهر الكعبة؟!

ولما فُتحت مكة أمره النبي عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة فأقامه والمشركون وجوم... يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه...

ودخل النبي الكعبة فكان في صحبته ثلاثة وهم: عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها... وأسامة بن زيد... وبلال...

بكى... وبكى معه سامعوه؟!

وما زال يصحب النبي مجاهدًا حتى قبض عليه السلام...

فأقام بعد وفاته أيامًا على أرجح الأقوال...

ثم أبى أن يؤذن... وأصر على الإباء... لأنه كان إذا قال في الاذان «أشهد أن محمدًا رسول الله» بكى... وبكى معه سامعوه...

فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبيّ ويراه...

ثم هو بعدُ لا يصحبه ولا يراه... وآثر الاغتراب على فرط حُبّه لمكة والمدينة...

وآثر الجهاد على فرط حاجته إلى الراحة في عشرة الستين... واتفق أرجح الأقوال على أنه استعفى الصِّدّيق من الأذان معه واستأذنه في الخروج إلى الشام مع المجاهدين...

فأذن له بعد إلحاح منه.

واشترك في معارك لا نعلمها على التفصيل...

ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها ويعيش من غلتها...

ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك... إلا يوم أذَّن للخليفة الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين... ويوم تصدّى لمحاسبة خالد في مجلس الحُكْم بين يدي أبي عبيدة...

غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه؟!

وأدركته الوفاة سنة عشرين للهجرة أو إحدى وعشرين...

واستعذب الموت لأنه سيجمع بينه وبين النبي وصحبه... كما كان يقول في ساعات الاحتضار...

فكانت زوجته تعول إلى جانبه وتصيح صيحة الوله! واحزناه...

فيجيبها في كل مرة وافرحاه... غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه...

وكانت وفاته بدمشق... فدفن عند الباب الصغير... وقبره رضي الله عنه معروف يزار...

قَدْر بلال عند الصحابة والتابعين؟!

وليس أدل على قَدْر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد الذي اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم في دمشق بعد انقطاعه عن الأذان تلك السنين الطوال...

بكى عمر... وبكى معه الشيوخ الأجلاء... حتى اخضلت اللحى البيض... واضطربت الأنفاس التي لا تضطرب في مقام الروع...

والظاهر أنه تزوج غير مرة وأنه مات بغير عقب...

ولكنه أعقب الميراث الذي يتصل بالأذان في كل مكان... فلا ينساه من يسمع الأذان ويرجع به إلى أول من نادى به قبل أجيال وأجيال...

إسلام بلال؟!

كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار: خديجة وأبو بكر وعليّ وعمّار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد...

إلَّا بلالًا؟!

قال رواة صدر الاسلام:

أما أبو بكر فمنعه الله بقوته... وكذلك مَن كان لهم قوم يحمونهم...

وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد... وأصهروهم في الشمس...

فما منهم إنسان إلا وقد اتاهم على ما أرادوا من الكفر وسبِّ النبيّ عليه السلام...

إلا بلالًا... فإنه هانت عليه نفسه في الله... وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحَد. أحَد. ولا يزيد...

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية في وقدة الهجير...

ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم إلى كلمة مما يسألونه...

ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد!!!

كان نِدًّا لأعظم المسلمين؟!

بلغ من تعظيمه أنه كان ندًّا لأعظم المسلمين في حياة النبي عليه السلام... وحياة الصِّدِّيق... والفاروق... بل كان الفاروق رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» ويقصده بهذا اللقب الرفيع»...

واتفق أن أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطًا من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق...

وطلبه معهم بلال وصهيب...

فأذن لهما حتى يَستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم!!!

وغضب أبو سفيان وقال لأصحابه: لم أرَ كاليوم قط... يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه؟!...

وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الإنصاف فقال لهم: «أيها القوم! إني والله أرى الذي في وجوهكم... إن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم... دُعي القوم الى الإسلام ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم... فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم؟!»...

صفات بلال؟!

كان متصفًا بأجل صفات بني جلدته: وهي الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء...

وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد في موضع القسوة والعناد...

بشرة سوداء... على طبعٍ صافٍ؟!

أجمع الذين وصفوا بلالًا على أنه كان طيب القلب صادق الإيمان...

وأنه أبعد ما يكون عن خبث أو كنود...

وإنما هو بشرة سوداء... على طبع صاف... يرى الناس وجوه أعمالهم فيه!!!

حُبّه لرسول الله...
هو لُبّ الحياة عنده؟!

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده، وهو معنى الدنيا والآخرة في طوية قلبه، وعاش ومات وهو لا يرجو في دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوي إلى جواره وينعم برضاه.

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة في قرين حياتها فتصيح: واحزناه.

وكان هو يجيبها في سكرات الموت: بل وافرحتاه! غدًا نلقى الأحبة، غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وصحبه.

على هذا عاش وعلى هذا مات، وما كان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم إلا وهي في جانب منها علاقةٌ بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه.

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه في معظم حالاتها وكانت لا تخليه من مناكفة في بعض حالاتها كما يتفق أحيانًا في كل عشرة بين زوجين وفي كل صلة بين إنسانين، فكان يقبل منها كل ما يسر ويسوء إلا أن تمسه في لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده: وهو إخلاصه لرسول

الله وصدق الرواية عنه. فاستعظمت يومًا ما يحدثها به عن رسول الله فإذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ثم يدع المنزل محنقًا مقطبًا حتى يلقاه الرسول، فيلمح ما به من تغير حال ويعلم سره فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجه مظنتها في صدقه. ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة: «ما حدثك عني بلال فقد صدق. بلال لا يكذب. فلا تغضبي بلالا».

فإذا المولى الأمين هانىء قرير.

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون في أبصارهم ولا يشكون في روايته ونقله. ويروون عنه رواية اليقين في شؤون الصلاة والصيام.

ففي صحراء العرب حيث يضيء النهار إلى ما بعد غروب الشمس وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون في مواعيد السحور والإفطار فيقولون: إنا لنرى الفجر قد طلع، أو يقولون: ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد، فإذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه ترك رسول الله يتسحر فالقول ما قال بلال، وليس للشك في ضوء النهار مكان.

الصدق؟!

وقد لزمت بلالًا عادة الصدق في كل كلام يبلّغه المسلمين عن النبي أو يبلغه إليهم في شأن من عامة الشؤون وخاصتها، فلما رجاه أخوه في الاسلام -أبو رويحة- أن يسفر له في زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال: «أنا بلال بن رباح وهذا أخي أبو رويحة. وهو امرؤ سوء في الخلق والدين، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا...»

فزوجوه وكان حسبهم عنده أن يقبل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه!

وقد كان من ولائه لأبي رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه إليه حين خرج

إلى الشام. فلما دون الفاروق دواوين الصحابة سأله: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: إلى أبي رويحة «لا أفارقه أبدًا، للأخوة التي كان رسول الله عقد بينه وبيني».

وذاك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء. فكانت أخوّة العمر عنده من فضل الولاء لرسول الله: وكان أحب الناس اليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه.

الأمانة؟!

وقد عرف له النبي عليه السلام هذه الخصال التي تتجمع كلها في صفة الأمانة ـ وهو هو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس ـ فأقامه في موضع الثقة منه وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه، واستصحبه في غزوه وحجه وحله وترحاله، وأسلمه العَنزَة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء، ولم يعرف أحدٌ من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذي يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذي يحفظ له المال والطعام، وهذا الرفيق الذي كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير في رحلات الصيف، وربما تقدمه فركب ناقته «القصواء» التي قلما كان يركبها سواه عليه السلام.

ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه، وبلال.

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن في ثراه. فكان بلال هو الذي ذكر واجب الحنان المكلوم في ذلك الموقف الأليم،

فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء.

الاصرار على الحقّ

وعلى هذا الحنان في طويته لمولاه العظيم كان للرجل ضميرٌ يعرف الاصرار على الرأي كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة.

وربما كان في هذا الاصرار شيء من عناد بني جلدته أبناء الحبشة المولّدين وأبناء السلالة السوداء. إلا أن العناد خصلة ذات لونين أحدهما يحمد ويفيد وثانيهما يذمّ ويضير.

فالعناد في أحد لونيه ثبات على الصواب والعقيدة، وفي لونه الآخر ثبات على الخطأ والهوى، ولم نعرف من العناد في تاريخ بلال إلا أجمل اللونين وأشبههما بقوة الأسر وخلائق الأمناء.

من ذلك عناده للمشركين حين ساموه العذاب ليفتنوه عن دينه ويكرهوه على سب نبيه كما تقدم في وصف إسلامه، ومنه إصراره على ترك الاذان لغيره وقر في نفسه أن آذانه بعد رسول الله نقص في الوفاء، وربما كان منه إصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام حين سأله الخليفة البقاء. فقال له في رواية مشهورة: «إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني، وإن كنت أعتقتني لله عز وجل فذرني أذهب إلى الله عزّ وجل» وأبى الا أن يمضي حيث أراد.

ولا شك أن الرحمة بالأعداء أمر لا ينتظر من رجل طال عهده وعهد قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعذاب اللؤماء، فإن رحمة رجل كهذا لمن أحسنوا إليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه. أما الخلق الذي يستغربُ منه حقًا فهو رحمة في ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط في الإساءة اليه.

ولهذا لا نستغرب ما روي عن بلال بعد وقعة خيبر وما روي عنه بعد

وقعة بدر مع المشركين. ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه.

فلما افتتح النبي حصن القموص بخيبر جيء له بصفية بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها. فأرسلها عليه السلام مع بلال إلى رحله. فمر بهما بلال على القتلى من قومها فصاحت البنت الصغيرة صياحًا شديدًا ولطمت وجهها. وعلم النبي بما صنع فقال له عاتبًا: أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتلى؟ فكان عذر بلال الذي اعتذر به في جوابه: يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك. وأحببت أن ترى مصارع قومها!

أما في وقعة بدر فقد كان عذره أوضح وأسلم من عذره في وقعة خيبر.

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة في صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى، وقد كانا أشد الناس إيذاء للمستضعفين من المسلمين كما تقدم، وكان بلال أوفر المسلمين نصيبًا من الإيذاء اللئيم. فما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله: رأس الكفر أمية بن خلف. لا نجوت إن نجا. ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح: لا نجوت إن نجا. لا نجوت إن نجا. حتى اجتمع حولهم خلق كثير، وضرب أحدهم ابن أمية فوقع صريعًا فإذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع بمثلها. قال عبد الرحمن بن عوف: انج بنفسك ولا نجاء بك! فوالله ما أغني عنك شيئًا. ولكن المقاتلين هبروهما بأسيافهم قبل أن يخلص له سبيل إلى الفرار.

وقد يزيد في وضوح العذر لبلال من هذه النقمة أن أمية هذا كان من أحق الناس بالبغض وقلة الرحمة. لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة، وكان يرهب القتال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التي أقدم عليها شجعان المشركين. فما هو إلا أن سمع بنذير النبي إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذي

توعده بالقتل فيه، وصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين في غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد، ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملأ بجمرة يبخره بها، وقال له: تجمر يا هذا فإنما أنت من النساء.

ولما نشبت المعركة ببدر كان هو وابنه في طليعة الناكصين عن القتال، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحة فزع لا تسمع في ميدان. فإنما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن في عقر داره، ولم يكن من لدد العقيدة التي يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وَكِلٍ ولا هيّاب. وليس أحق من مثل هذا ببغضاء المنتقم في ساعة القصاص، وكفى لبلال عذرًا في هيجة غضبه عليه أنه يعلم إنذار النبي إياه بالقتل وأن أبا بكر هنأه بعد قتله فقال:

هنيئًــــــا زادك الرحمن خيرًا لقـد أدركـت ثـأرك يـا بلال

كنت بالأمس عبدًا

وفي غير هذه الهيجة التي تدرك أحلم الناس في موطن النقمة وحومة الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل الفطري التي تبدر منه القسوة وهو لا يعنيها، وكان في جلة أحواله مثلًا للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع، فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه في صدر الإسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره، فيطرق ويقول إنما أنا رجل كنت بالأمس عبدًا. وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية، فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يجهلون من أحاديث النبي عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواثقين بصدق ما

يرويه، ولم يزد في إخباره عن النبي على ما يعنيه من إقامة الصلاة والأذان أو مواعيد الإفطار والصيام.

يعْقل خالدًا؟!

وآخر ما يروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين أمر الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء. فقد سكت خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات أهي من ماله أم من مال المسلمين؟ وهو معرض لا يجيب. فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه. وسأله: ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ فعند ذلك أجاب خالد: بل من مالي. فأطلقه وعممه بيده، وهو يقول: «نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا».

ذلك آخر ما روي من أعمال بلال في خدمة الخلافة، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها في عمل واحد وخلق واحد، وهو الطاعة الجريئة التي لا تنسى التفخيم والتعظيم إلا في سبيل طاعة أكبر منها وأوجب. فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف إلى محاسبة خالد بأمر الخليفة وأمر الله، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتفخيمه وتعظيمه حين فرغ الحساب.

الأذان؟!

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يسمع لأحد أذانٌ قبله ولم يسبقه إلى ذلك سابق في تاريخ الاسلام. وهو شرف عظيم، لأن محمدًا بن عبدالله كان إمام المسجد الذي كان مؤذنه بلال بن رباح...

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة أن بلالًا كان محبّب الصوت إلى أسماع المسلمين... وأنهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبي فيزيدهم هذا خشوعًا لسَماع صوته فوق خشوع...

على أننا نقرأ في انباء فتح مكة أن رهطًا من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون: أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة؟!... وكانوا يستكبرون من رجل كائنًا من كان أن يعلو ظهر البيت الذي لم يصعد إليه أحد في الجاهلية... فهالهم أن يروا «عبْدًا» يصعد إليه ويجهر بذلك النداء...

قال بعضهم للحارث بن هشام: ألا تَرى هذا العبد أين صعد؟!... فلجأ الرجل إلى حكمة المضطر وقال: دعه: فإن يكن الله يكرهه فسيغيره...

وكان الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوسًا بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالًا أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيقيم الاذان. فقال عتّاب: لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، وأنكر أبو سفيان ما سمع أو قيل في بعض الروايات انه جمجم قائلًا: لا أقول شيئًا، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا».

وقبل أن نحيل هذا الإنكار إلى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغي ان نذكر ان ذلك الوصف من المشركين كانوا خلقاء ان ينكروا أول أذان يرتفع في سماء مكة ولو ترنمت به الملائكة وتجاوبت به سواجع الأطيار، وأنهم سمعوه زعيقًا، و«نهيقًا» كما قالوا لأنهم سمعوا شيئًا لا يطيقونه ولا يستريحون اليه، وكانت بهم عنجهية السادة في النظر الى العبيد، وكان لبلال عندهم وتر معروف بمن قتل من سادات مكة في غزواته مع النبي عليه السلام.

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول إلى الخشوع ثم إلى ذكرى

النبي الحبيب، ورددنا كره المشركين إياه إلى النفرة ثم إلى العنجهية والعداء ـ فقد بقي شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهارة الصوت وابتعاد مداه في أجواز الفضاء، ولا حاجة بنا إلى العناء في الموازنة بين خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول ان اختيار النبي إياه يدعوه ويدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات ـ هو الشهادة لصوت المؤذن الأول بالسلامة من النفرة والنشوز المعيب، فما عهد محمد عليه السلام خاصة إلا أنه كان يحمد المنظر الحسن، وكان ينكر كل نكير ويستريح إلى كل جميل.

المؤذّن الأول؟!

أما بلال[1] فكان أسود افريقيا من أبناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه وهو يتخذ دين الاسلام... وبغيرته على الدعوة النبوية... وجمال النغم في ترجيع صوته ـ ذلك الصوت الذي تناوله ومدّ فيه وكـرره كل مؤذن في الإسلام...

وبدأ بلال حياته عبدًا لأنه كان وليد جارية حبشية... ولم يعرف عن نشأته في الطفولة غير النزر اليسير...

ويظهر أنه كان فاحم السواد كثيف الشعر... وكانت لوجهه ملامح الزنوج... وأنه كان طويلًا أجنأ كأنه الجمل... لا يروق النظر ولكنه شديد الأسر مفتول الجسد متين الأعصاب...

ولعل بلالًا كان أول من دان بالإسلام من بني جلدته... ولذلك قال النبي عنه إنه أول ثمرة من ثمرات الحبشة...

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من

(١) هذا الفصل مما كتب «لـفكاديو هيرن» في اللغة الانجليزية عن بلال. وترجمه العقاد.

عقيدته ألم الضرب ولا حدّ الظمأ ولا طول التعريض للشمس على بطاح مكة الملتهبة... وعجزت كل هذه المحن أن تثني عزيمته الحديدية... فلم يكن له من جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه الا أن يردد قوله: أحَد! أحَد!

هذه الفترة من حياة بلال أيام دخوله في الإسلام هي التي اختارها الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للاشادة بها في كتابه منطق الطير فقال:

«إن بلالًا قد تلقى على جسده الهزيل ضربات العصي من الخشب... والسياط من الجلد... فتمزق إهابه... وسال الدم من جراحه... ولم يمسك قط عن توحيد الله الذي لا إله غيره»!!!

★ ★ ★

ولم يكن الأذان معروفًا في مستهل الدعوة الاسلامية...

ثم عرف الاذان بعد بناء المسجد وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة وكعبتها...

وتذكّر (النبي) تلك الهبة الصوتية النادرة التي خص بها مولاه الوفي بلال... فأمره أن ينادي إلى الصلاة بتلك الكلمات التي سمعها المسلم الصالح في منامه...

وكان الليل في هزيعه الأخير فوعى المؤذن الأول واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر...

وما هو إلا أن طلعت بشائر النور الأولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشي الساحر يردد الاذان من مشرف عال بجوار المسجد...

فكان ذلك فاتحة تاريخ المنارة الجميلة التي تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة في المدن الاسلامية...

فلا يبعد إذن أن يكون بلال قد سمع الاذان وصاغ منه اللحن الذي أوحته اليه سليقته الافريقية الآبدة... فأقره النبي عليه كما أقره على ما أضافه بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث زاد عليه «الصلاة خير من النوم»...

ولما تعاظمت قوة الإسلام تعاظمت معه مكانة بلال... وعهدت اليه أمور أهم وأكبر من الاذان...

فكان خازن بيت النبي وأمينه على المال الذي يصل إلى يديه...

وكان هو الذي أقام الأذان على أعلى مكان في تلك البنية التي اشتهرت الآن في أنحاء الكرة الأرضية..

وكان هو الداعي الى الصلاة يوم حضر الى المدينة ملوك حضرموت للدخول في الاسلام...

وكان هو الذي يدعو إلى الصلاة حتى يحتشد فرسان الإسلام بالصحراء لقتال عابدي الأوثان...

ثم توفي محمد «عليه السلام» فسكت الصوت العجيب...

ودعي مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين إلى الصلاة...

لأن بلالًا عاهد نفسه ألا يؤذن لإمام بعد نبيّه ومولاه!!!

★ ★ ★

سكت صوت بلال عن ترديد الاذان بعد نبيهِ ومولاه...

لأنه رأى أن الصوت الذي أسمع نبي الله ودعاه الى بيت الصلاة لا ينبغي ان يسمع بعد فراق مولاه...

ولنا أن نتخيله في مأواه بالشام وأنه ليدعى مرارًا إلى ترديد ذلك الدعاء الذي أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء...

وإنه ليضطر مرارًا إلى الاباء والاعتذار لأولئك الذين كانوا يجلّونه إجلال القديسين ويودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه...

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل إليه رؤساء القوم أن يسأل بلالًا إقامة الاذان تكريمًا لمحضر أمير المؤمنين...

فرضي بلال... وكان أذانه الأخير!!!

- انتهى -

* * *

أقول: اقتضت الأمانة العلمية أن ننقل اليك مختصرًا من كتاب «داعي السماء - بلال مؤذّن الرسول»... استكمالًا للصورة... فكلما كان التصوير من زوايا متعددة كان أشمل وأكمل...

وأرجو ألّا تضطرب أمام اختلاف الروايات... فهذا شيء طبيعي في عصر كان يعتمد على الرواية لا على التدوين...

ونرجو بعد ذلك من الله القبول!!!

* * *

سبحانك اللهم وبحمدك...

أشهد أن لا إله إلا أنت...

أستغفرك وأتوب إليك...

فهرس

حياة بلال

شخصية بلال

بلال . . . كما يراه . . . العقّاد ؟!